

مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات
Le Centre d'Etudes Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'information
et la Ligue des Universités Musulmanes

مكتبة
محمد عبد الحميد عيسى

ورابطة الجامعات الإسلامية
Organisent: ينظمان

المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية
بمناسبة الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة (1492 - 1992)

Le Ve Symposium d'Études Morisques á l'occasion du Ve Centenaire de la Chute de Grenade (1492 - 1992)

مكتبة
أ.د. محمد عبد الحميد عيسى

الملكة ايزابيل الكاثوليكية

ودورها في اسقاط دولة الاسلام

بالاندلس

Isabel La Católica

y su papel en la caída de
al - Andalus

بقلم الدكتور

محمد عبد الحميد عيسى محقر

أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد

ورئيس قسم العلوم الاجتماعية

كلية التربية - جامعة عين شمس

مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات
Le Centre d'Etudes Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'information
et la Ligue des Universités Musulmanes

ورابطة الجامعات الإسلامية

Organisent: **ينظمان**

المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية

بمناسبة الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة (1492 - 1992)

Le Ve Symposium d'Études Morisques á l'occasion du Ve Centenaire de la Chute de Grenade (1492 - 1992)

الملكة ايزابيل الكاثوليكية

ودورها في اسقاط دولة الاسلام

بالاتدريس

Isabel La Católica

y su papel en la caída de

al - Andalus

بقلم الدكتور

محمد عبد الحميد عيسى حقر

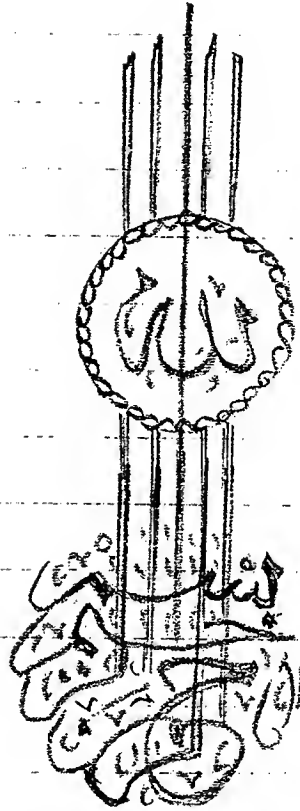
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

ورئيس قسم العلوم الاجتماعية

كلية التربية - جامعة عين شمس

إهداء من

مكتبة
أ. د. محمد عبد الحميد عيسى



أهداء

الى فارس غرناطة

الذي لم يرد اسمه فى هذا البحث

الى

موسى بن أبى الغسان

الذى

رفض أن تستسلم غرناطة ، أو أن يبكى الرجال

وطالب

أن يقاتل الجميع حتى النصر أو الموت

ونبه

الى أن العهود لا قيمة لها ، وأن المصير مؤلم

وحين لم يوافقه أحد

خرج

وقاتل حتى جرح ، وحتى لم يعد قادرا على القتال

عندئذ

ألقى بنفسه الى قاع النهر حيث ابتلعه

الأمواج ، وطوت بطولته صفحات التاريخ *

د. محمد عبد الحميد عيسى

* انظر مكتبته عنه الأستاذ / محمد عبدالله عنان في كتابه عن نهاية الأندلس

الصفحات ٢٤١ و ٢٥٥ و ٢٥٦ .

الملكة ايزابيل الكاثوليكية ، ودورها في اسقاط
دولة الاسلام في الأندلس

الهدف من الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الي التعرف على احدى الشخصيات التاريخية التي أدت دورا رئيسا في اسقاط دولة الاسلام في الأندلس والتي قامت بالقضاء علي آخر المعاقل الاسلامية في اسبانيا ، وهي مملكة غرناطة التي استسلمت لها ولزوجها الملك فرناندو Fernando el Católico في الثاني من يناير ١٤٩٢م.

ان واحدة من نواقص المكتبة العربية - بل انه من نواقص التفكير العربي عامة - عدم دراسة الشخصيات المعادية دراسة مستفيضة، حيث ان المكتبة العربية بصورة عامة خالية تقريبا من الدراسات العلمية الجادة حول الشخصيات التي تصدت للعالم الاسلامي، وسببت له الكثير من الكوارث والنكبات.

ولست أقصد بذلك الاشارات التاريخية التي ترد في المصادر العربية والاسلامية التي نراها بصورة مبتسرة عن ذلك الآخر . والتي يرد ذكرها فقط عند الحديث عن المعارك أو سقوط المدن، وانما أقصد الدراسات التي تعرفنا بذلك الآخر بين قومه، والتي تتناول بالدراسة التحليلية والبحث المستفيض جوانب حياة تلك الشخصيات وموقعها في تاريخ بلادها، والظروف التي أحاطت بها وبنشأتها وفترة حكمها، وادارتها لدولتها حتي تمكنت من الحاق الأذى بالعالم الاسلامي.

أليس من الغريب أن تخلو المكتبة العربية من الدراسات العلمية الجادة حول شخصيات من أمثال جنكيزخان، وهولاكو من قادة المغول، أو أبطال الحروب الصليبية من المسيحيين من أمثال ريتشارد قلب الأسد، ولويس التاسع، والبابا أوربان وغيرهم من الرجال الذين حركوا تلك الجموع الغفيرة من الأوربيين لقتال العرب والمسلمين، وتسببوا في الكثير من الكوارث والنكبات لهذه المنطقة ابان الفترة من القرن الحادي عشر الي الثالث عشر من الميلاذ.

ومن ذلك أيضا خلو المكتبة العربية الاسلامية من الدراسات العلمية الجادة حول ملوك قشتالة Castilla وليون Leon ، نافارو Navarro وأراغون Aragon الذين قادوا الحملات الصليبية ضد الأمة الإسلامية في الأندلس، بدأ من بلاي Pelayo ، ومرورا بالفونسو السادس Alfonso IV ، وخايمي الفاتح Jaime el Conquistador ، والفونسو الحادي عشر Alfonso XI ووصولاً الي

الملكين الكاثوليكين Los reyes Católicos وانتهاء بفيليب الثالث Felipe III الذي قرر طرد الموريسكيين من الأندلس في أبشع عملية من نوعها في مطلع القرن السابع عشر من الميلاد.

ولا ينطبق ذلك الأمر على أعداء الأمة الإسلامية في العصور الوسطى فحسب، بل مازال الأمر على ما هو عليه بالنسبة للوقت الحالي، ولنسأل أنفسنا عن مدي معرفتنا بقيادة أو ملوك الدول الاستعمارية التي توجهت جيوشها لاحتلال بلادنا والسيطرة على شعوبنا ابان عصري التاريخ الحديث والمعاصر أو ماذا نعرف عن قادة اسرائيل الذين تسببوا للأمة العربية والإسلامية في أكبر كارثة لحقت بها، عبر تاريخها كله متى كان هذا التاريخ.

ان هذه محاولة متواضعة لتقديم واحدة من الشخصيات المرتبطة بتاريخنا وهي وان لم تكن بالصورة التي اقمناها، فهي على الأقل بادرة تفتح مجال الدراسة في هذه الموضوعات.

العناصر الأساسية للدراسة :

١ - التعريف بالأوضاع السياسية العامة في شبه مملكة قشتالة Castilla ابان حكم الملك خوان الثاني Juan II والد الملكة ايزابيل ، وابان حكم أخيها الملك انريكي الرابع Enrique IV (١٤٥٤م) والتي أدت في النهاية الى التفاف الاسبان حول ايزابيل والمناداة بها ملكة على قشتالة.

٢ - نشأة الملكة ايزابيل، وتطور حياتها من الطفولة الى الشباب الى زواجها من الأمير فرناندو دي أراغون Fernando de Aragon ، ثم وصولهما معا الى عرشي مملكتي قشتالة Castilla وأراغون Aragon.

٣ - مشروعات الملكة ايزابيل للنهوض بقشتالة، وتوجيه جهودها لطرد المسلمين من الأندلس، والاستيلاء على غرناطة.

٤ - سياسة الملكة الداخلية والخارجية.

٥ - موقف الملكة من المسلمين بعد سقوط غرناطة.

المصادر الدراسية :

تعتمد هذه الدراسة على عدد من المصادر العربية والاسبانية القديمة منها والحديثة على السواء . ومن أهمها كتاب نفح الطيب للمقري، وآخر أيام غرناطة لمؤلف أندلسي مجهول وتاريخ ابن خلدون،

ومحنة مسلمي الأندلس لمحمد حاملة، والمسلمون المنصرون لعبد الله جمال الدين، ومن الكتب الاسبانية ما هو متعلق بتاريخ اسبانيا العام، وما جعل خصيصا للملكة ايزابيل الكاثوليكية وأهمها كتاب الدكتور لويس سواريث فرينانديث عن " السياسة الدولية للملكة ايزابيل الكاثوليكية " . وكتاب قيصر سيليو كورتيس عن الملكة ايزابيل المؤسس الحقيقي لاسبانيا . وغير ذلك من الكتب على ما هو مبين في قائمة المصادر.

مقدمة:

تحتل الملكة ايزابيل الكاثوليكية مكانة بارزة عند الاسبان خاصة وفي العالم المسيحي عامة ليس فقط على أساس أنها الملكة التي اكملت الحروب الصليبية في الغرب وقضت على دولة الاسلام في الأندلس، بل أيضا باعتبارها أحد رموز التعصب لخدمة المسيحية الغربية حتي لقت . بالكاثوليكية " لشدة حماسها لذلك المذهب ولمجهوداتها في محاولات تنصير المسلمين واليهود المقيمين في اسبانيا. علاوة على ذلك كله فإنها الملكة التي مولت رحلات كريستوفر كولومبس Colón الي العالم الجديد ومن ثم نشرت الديانة المسيحية الكاثوليكية في أمريكا الجنوبية ومعها بالطبع الحضارة الاسبانية، وأخيرا باعتبارها المؤسس الحقيقي لدولة اسبانيا في مطلع العصر الحديث.

لهذا، ولأشياء أخرى - كتبت عنها مئات المؤلفات باللغة الاسبانية، واللغات الأوربية الأخرى - منها ما يتميز بالطابع العلمي البحت ومنها ما تتضح فيه أساليب المبالغة وسمات الاسطورة سواء فيما يتعلق بحياتها الشخصية، في سلوكها، في تدينها أو في علاقاتها بالدول المجاورة.

وتجمع الغالبية العظمى من هذه المؤلفات على التغني بصفات هذه المرأة التي تولت عرش اسبانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي والتي كان زواجها من ابن عمها الأمير فرناندو الأراغوني سببا في توحيد مملكتي قشتالة واراغون، وقيام اسبانيا الموحدة التي تمكنت من توحيد شبه جزيرة ايبيريا تحت سلطانها - ماعدا اقليم البرتغال - فمن الاشادة بجمالها الأنثوي الفاتن الي التركيز على نشأتها الدينية الصحيحة، وسلامة عقيدتها ومن التقدير الكبير لسعة أفقها وخيالها، ومحبتها لقومها ووطنها الي كونها واحدة من أعظم الشخصيات في التاريخ. (١)

قشتالة قبل الملكة ايزابيل :

عاشت قشتالة اiban القرن الرابع عشر من الميلاد فترات طويلة مليئة بالشوarts الداخلية، وتفشي الفساد والاضطراب، مما كان يعطي لمملكة غرناطة فرصة التنفس والحياة بل والنمو والإزدهار.

بدأت تلك الفترات بتولي الملك الفونسو الحادي عشر Alfonso XI الحكم صغيراً تحت وصاية نبيلان كبيران هما دون بدرو Don Pedro ودون خوان Don Juan واللذان وصلت البلاد على عهدهما الي حالة من الفوضى البينة، كما انهما تعرضا لهزيمة قاسية من المسلمين بالقرب من غرناطة وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٧١٨ هـ الموافق لشهر مايو ١٣١٨م حيث لقي هذان الوصيان حتفهما مع كثير من نبلاء قشتالة وتمزق جيشها كل ممزق. (٢)

وأدي ذلك بطبيعة الحال الي مزيد من عدم الاستقرار، والتفكك وينقل عن " سكوت " قوله : ان مملكة قشتالة كانت في حالة سيئة، وقد نفدت مواردها من الرجال والأموال بسبب الحروب والثورات المتواصلة، والمرض والقحط، وكان اسراف البلاط، وبذخ الخلائل، واختلاس الموظفين، ومطالب رجال الدين، وجشع الأشراف، تستنفد أموال العامة.

ومع ذلك، حين بلغ الفونسو الحادي عشر سن الرشد، وتولي ادارة المملكة بنفسه، خطا خطوات واسعة نحو الإصلاح، وتمكن بالرغم مما كان يحيط به من فساد ومشاكل داخلية من الانتصار على المسلمين في معركة حاسمة هي معركة طريف التي أصابت المسلمين في المغرب والأندلس بنكسة خطيرة عام ١٣٤٠م. (٣) سقطت على اثرها مدينه طريف وبعض المدن الأخرى في أيدي القشتاليين.

واصل الفونسو الحادي عشر غاراته على غرناطة، وحاول عام ١٣٤٩م الاستيلاء على جبل طارق، وأن يقطع الطريق تماما على الاتصال بين الأندلس وما يأتيها من نجيدات ومساعدات من بلاد المغرب، لكنه نتيجة لصمود القوات الاسلامية الرائع وتفشي الوباء في جيش القشتاليين فقد نجحت المدينة وفشل الهجوم. (٤)

عاشت قشتالة فترة أخرى من الاضطراب السياسي، وما يصاحبه من مشاكل اقتصادية واجتماعية حتى وصل الي العرش الملك خوان الثاني Juan II عام ١٤٠٦م والذي طال حكمه لحوالي خمسين عاما تدنت فيها قشتالة الي درجة من السوء لم يسبق لها مثيل وكثر خلالها الصراع الداخلي، وعلى صوت الامراء والنبلاء بالثورة والتمرد في مناسبات كثيرة.

كان ولي عهد الملك خوان الثاني ابنه الأكبر الذي عرف باسم انريكي الرابع Enrique، ثم مالبت الملك خوان أن تزوج بأميرة برتغالية عرفت اسم " ايزابيل البرتغالية Isabel de portugal وأنجب منها الأمير الفونسو والأميرة ايزابيل التي عرفت فيما بعد بالكاثوليكية. (٥)

حكم قشتالة بعد خوان الثاني ولده انريكي الرابع، وكان سيئ الحظ فلم يلق قبولا من شعبه، ولقب بالعاجز El impotente، وكان عصره من أكثر فترات قشتالة سوءا وفوضى^(٦) وإستغل الأمراء والنبلاء عيوبه الشخصية في القضايا السياسية، كما أن وراثة العرش من بعده ستصبح هي الورقة التي سيلوح بها الثائرون دائما مستغلين أو يمكن القول منحازين أحيانا الى الأميرين ألفونسو وإيزابيل اخوة الملك غير الأشقاء.

مولد الأميرة إيزابيل ونشأتها :

في الثاني والعشرين من شهر ابريل عام ١٤٥١م وضعت الأميرة إيزابيل البرتغالية طفلة أطلق عليها اسم والدتها " إيزابيل " وكان ذلك في مدينة " مدريدال ذات الأبراج العالية Madrigal de las altas Torres ولقد كان المنشور الملكي الذي اصدره والدها الملك خوان الثاني الي الناس بهذه المناسبة يحمل هذه الكلمات :

أحيط علم الكافة والخاصة، أننا ندين بالشكر الجزيل للرب العظيم لأنه في يوم الخميس الماضي، فلقد وضعت الملكة - دونيا إيزابيل، زوجتنا العزيزة الغالية، طفلة، أقول لكم هذا لتقدموا الشكر للرب علي هذه النعمة ".^(٧)

وتم تعميد الطفلة في كنيسة القديس نيقولاس San Nicolas ، ويصفها المؤرخون بأنها كانت زرقاء العينين، شقراء الملامح، متفتحة للحياة، وان جاءت طفولتها في اشد عصورا اسبانيا سوءا واضطرابا.^(٨)

لم تكن إيزابيل قد تجاوزت الثالثة من العمر فقط حين توفي والدها الملك خوان الثاني، وأصبح على العرش أخيها غير الشقيق، الذي ازداد حال البلاد سوءا على أيامه حتي يقول عنه أحد المؤرخين الاسبان : ان عصر هذا الأمير من أصعب فترات تاريخ اسبانيا بحيث يستحيل كتابة تاريخ له، ويمضى في ذكر مساوئه حتي يختصر ذلك بقوله : ان المرء ليعجب كيف انحدرنا نحن الاسبان من تلك الفترة الحزينة التي ضاعت فيها هيبة البلاد وتقلصت السلطة فيها الي أقل حد ممكن.^(٩)

أبعدت الملكة إيزابيل البرتغالية وطفليها بعيدا عن بلاط انريكي الرابع، وذهبت لتعيش في منطقة أريفال Areval ، وفي تلك الأحرش عاشت إيزابيل الصغيرة في عزلة تامة بعيدة عن أخيها الملك، ولقد قاست منذ طفولتها، وبداية تفتحها للحياة كل أحداث الثورات والتمرد والانتفاضات التي قام بها نبلاء قشتالة ضد الملك انريكي الرابع.

ولقد بدأ بعض النبلاء في استغلال وجود الأخوين غير الشقيقين الفونسو وإيزابيل، ورفعاً راياتهما في مواجهة أنريكي الرابع، ودلالة على سخطهم منه ومن نظام حكمه، مما حدا بأنريكي الرابع إلى استدعاء أخويه غير الشقيقين الفونسو وإيزابيل للإقامة معه، ولكي تشهد إيزابيل تجميع ابنة أخيها الملك الأميرة خوانا Juana والتي يصير كثير من المؤرخين الأسباب، والمعارضون للملك أنريكي على عدم صحة نسبها إليه، ونسبتها إلى أحد فرسان القصر، وعرفت هذه الفتاة بالأميرة بالترانيجا Beltranija أي ابنة الدوق بلتران دي لاكويبا Beltran de la Cueva ، ويرى مؤرخو الملكة إيزابيل أنه من المفارقات المحزنة أن يتم تجميع الطفلة التي ستصبح ولية للعهد بين أيدي من هي جديرة بهذا العرش. (١٠)

ويرى قيصر سيليو أن هذه السنوات التي عاشتها الأميرة إيزابيل شبه منفية قد ولدت في نفسها إشارات واضحة من اليأس والحزن، وأن هذه السنين الأولى قد حملت نفسها بطاقة كبيرة من الحنين لموطن رأسها قشتالة القديمة، وساعدها ذكاؤها الطبيعي، واستعدادها الفطري على أشياء كثيرة، وعلي إدراك الكثير من الأمور التي كان من المطلوب أن تبقى بعيدة عنها وأن لا تعرف عنها شيئاً.

أما عن الملكة الأم - إيزابيل البرتغالية - فقد تأثرت كثيراً بما أحاط بها من حزن وأسى شديدين أسلمها إلى درجة من الهوس ومنه إلى الجنون الفعلي، مما زاد من شقاء ولديها الصغيرين ومما زاد الطين بلة أمام الأميرة الصغيرة إيزابيل أو أمام تلك الأسرة التعسة أنها لم تتلق من الملك أنريكي الرابع أية مساعدة، بل لعله لم يتذكرهم، ولكم كان قاسياً ذلك التفكير الذي كان يمر بخيال الملكة إيزابيل البرتغالية حين تتذكر أيام مجدها كملكة لقشتالة، وكيف هوت بها الأيام حتي انحدرت بها إلى ذلك الركن المنسي من أحراش قلعة أريفالو El Castillo de arevalo ، حتي يقال أنها كانت تجري وسط الغابات منادية على زوجها المتوفى بلقب التدليل بينهما، سيد الفارو Don Alvaro... (١١)

لقد أثر ذلك الوضع تأثيراً واضحاً على نشأة الأميرة إيزابيل، وكان ذلك سبباً في اقترابها من الحياة الدينية، والتمسك بقيمها، ورأت في ذلك طمأنينتها وراحة بالها، واكسبها ذلك حالة من الهدوء النفسي، مما زادها محبة في نظر الناس وقربها إلى النبلاء، حتي لقد غدت هذه الطفلة وكأنها الشمعة التي يمكن أن يلتف حولها ذلك المجتمع المفكك وأنها يمكن أن تكون الملهمة له في تلك الفترات الحالكة الظلام.

لهذا كله يبرز المؤرخون الأسباب المعضلة الكبرى التي تبدت في ميلاد ابنة للملك أنريكي الرابع

وهي الأميرة " خوانا " Juana ، وتتجلى خطورة هذا الوضع في النتائج المترتبة عليه على النحو التالي، لأنه اذا ثبت فعلا أن الأميرة خوانا Juana هي ابنة حقيقية للملك انريكي الرابع فلا يمكن - عند ذلك - منازعتها حقها في عرش قشتالة، لكن اذا ثبت العكس، وصدقت الشائعات، فلن يكون ذلك من حقها، ويصبح العرش أو ولاية العهد حقا للأمير الفونسو Alfonso الاخ غير الشقيق للملك انريكي الرابع، واذا لم يكن هذا الأمير موجودا، أو تغيب لسبب من الأسباب، أو أنه قد مات فإن العرش في هذه الحالة يصبح من نصيب الأميرة ايزابيل الأخت غير الشقيقة للملك انريكي الرابع. (١٢)

هناك عدد آخر من المؤرخين الإسبان يري أن القول بعدم نسبتها الى أبيها انما يرجع الى الخصومات السياسية التي كانت تجري حينذاك، مدللين على ذلك بأنه منذ اعلان حمل الملكة من زوجها الملك انريكي الرابع والأخبار تتري في كل اسبانيا، بل وفي العالم الخارجي في انتظار ذلك الحدث السعيد، وانها بعد مولدها جاءت السفارات من بعض الدول الغربية لتهنئ بمولد ولية العرش، وان البلاط القشتالي، اجتمع لأداء اليمين التقليدية لهذه الآبنة، وأن الذي كان يحملها على ذراعيه في ذلك الحين كان رئيس أساقفة طليطلة الفونسو دي كاريليو Alfonso de carrillo ، علاوة على توليه هو شخصياً مسألة تعميدها في حضور عدد كبير من الناس من بينهم عمته الأميرة ايزابيل التي أصبحت فيما بعد الملكة ايزابيل الكاثوليكية. (١٣)

زادت ثورات النبلاء، وتمردهم على الملك انريكي الرابع، وازدادت الأمور سوءا في قشتالة، وتقسمت البلاد الى شيع يحارب بعضها بعضا، وانعدم الأمن في الطرقات حتي غدت الملكة بأسرها مسرحا للجرائم، ومرتعا للفوضى، مما حمل الملك انريكي الرابع، في محاولة منه لارضاء النبلاء، الى القيام بمحاولة للتصالح فأصدر مرسوما اعترف فيه بأخيه الفونسو وليا للعهد من بعده، مما عده كثير من المؤرخين اعترافا ضمنيا من الملك بعدم شرعية حق الأميرة خوانا في وراثة العرش ومن ثم في عدم صحة نسبتها اليه وكان ذلك في الرابع من سبتمبر ١٤٦٤م. (١٤) ويرى جونشاليث رويث أن العرش بهذه الخطوة قد اقترب كثيرا من الأميرة ايزابيل. (١٥)

لم تفلح تلك الخطوة في تهدئة الأمور في مملكة قشتالة، بل لقد تطورت الأمور الى الاسوأ ووجد النبلاء والثائرون في ولي العهد الجديد علما يرفعونه ضد أخيه الملك، وتزعم الثورة كبير اساقفة طليطلة Alfonso carrillo والمركيز دي فيانا el marques de villana ، وانقسم المجتمع الاسباني الى جزئين، أحدهما يعترف بالملك انريكي الرابع ملكا على قشتالة والآخر ينادي بالأمير الفونسو ملكا على قشتالة ويسقط الملك انريكي الرابع من الحكم، ولقد قام النبلاء عام ١٤٦٥ م

باجراءات تنصيب الأمير ملكا في مدينة أفيللا Avila مما أشعل الحرب الأهلية بين الأخوين (١٦) وتطورت الأمور كثيرا لصالح الأمير الفونسو مما اضطر الملك انريكي الرابع الى الاحتماء في مدينة زامورا Zamora وهي مدينة حصينة جدا، وطلب الملك المساعدة من ملك البرتغاليين الذين سارعوا الي نجدة،

لكي يحقق لهم وعوده بالموافقة على زواج أخته ايزابيل من الملك الفونسو الخامس ملك البرتغال، وبهذه المساعدة البرتغالية، ووقوف عدد كبير من المدن الاسبانية الى جانبه، تمسكا بالشرعية، تمكن انريكي الرابع من تحقيق نصر نسبي على حلفاء أخيه في معركة أولميدو Olmido سنة ١٤٦٧م وان ظلت الأوضاع شائكة ولم تحسم الأمور لصالح أحد الطرفين. (١٧)

كانت الأميرة ايزابيل خلال تلك الفترة شبه أسيرة في بلاط أخيها غير الشقيق يحملها معه في ذهابه وإيابه، حتي اقتربت من مدينة شقوبية Segovia، وهناك تمكن الثائرون من تهريبها وضماها الي مجموعة أخيها الشقيق الأمير الفونسو، الذي أصبح يعرف بالملك الفونسو الثاني عشر Afonso XII، وكان انضمام ايزابيل الي معسكره عاملا اساسيا في اشتعال الثورة وازدياد المؤيدين لألفونسو الثاني عشر والمعارضين لأنريكي الرابع - وبدا الملك القشتالي يائسا من النجاة الي ان اضطر الي الاحتماء داخل مدينة طليطلة حيث استعد الثوار لحصاره داخلها والقضاء عليه وعلى ملكه نهائيا .

وفي الطريق الي حصار طليطلة، والحماس يدفع بالثوار دفعا وقع حادث هام ترك أثره الخطير على مجريات الأمور في ذلك الوقت.

تناول الفونسو الثاني عشر، عشاء فاخرا من أسماك المانخار التي كان يعشقها ثم دخل الي فراشه لينام، وعند ايقاظه منتصف اليوم التالي لم يكن قادرا على الحركة، وسرعان ما اسلم الروح في الخامس من يولية ١٤٦٨م. (١٨)، واختلف المؤرخون في تفسير الحادث وفيما اذا كانت الاسماك فاسدة وتسببت في موت الأمير أم أنها سممت عمدا وكانت من تدبير أعداء الأمير ومن معه من النبلاء. (١٩)

ترتب على هذا الحادث أن اجتمع الثائرون حول الأميرة ايزابيل، ونادوا بها ملكة على قشتالة، ولقبت بالملكة ايزابيل الأولى Isabel I، ولكن الأميرة بكل ماكانت تتمتع به من بعد نظر ومن حنكة وجدية رفضت ذلك العرض، ونادت بأن يلتزم الجميع والخضوع لأخيها الملك انريكي الرابع، لأن ذلك سيعيد السلام الي هذه الأرض التي لا أتمنى لها غير ذلك، وكتبت رسالة بهذا المعنى الي أخيها. (٢٠)

ابزابيل ولية لعهد قشتالة :

لم يكن امام الثوار من طريق غير محاولة التصالح مع الملك انريكي الرابع، في نفس الوقت الذي كان الملك فيه متشوقا الى الوصول الى اتفاق مع كبار رجال مملكته لذلك فقد عقد اتفاق بين الطرفين أقر فيه الملك بأن تكون أخته الأميرة ايزابيل ولية للعهد من بعده، وعقدت لذلك الاحتفالات فيما عرف بـ El campo de los Toros de Guisando حيث حضر كل من رئيس أساقفة طليطلة وكاردينال أشبيلية، وقلعة الحرة، وليون، حيث عقد الملك والأميرة الأيمان على ماتم الاتفاق عليه، ومن ثم هدأت الأمور وتوحدت صفوف قشتالة ووضعت الحرب الأهلية أوزارها بفضل تصرفات هذه الأميرة الراجحة التي بدأت تحتل مكانا طبيعيا في تاريخ شعبها وبلدها. (٢١)

زواج الأميرة ايزابيل:

كان من طالع الأقدار أن تكون الأميرة ايزابيل لعبة سياسة منذ نعومة أظفارها، فغدا زواجها أو الوعد بالزواج منها في أكثر من مناسبة نصا ثابتا في الكثير من المعاهدات أو الاتفاقيات التي يبرمها الملك انريكي الرابع مع أمراء الممالك المجاورة أو مع كبار النبلاء في مملكته.

وكثرت السفارات المطالبة بيدها حين أصبحت الأميرة ولية لعهد قشتالة، بل وأصبحت قريبة جدا من عرش المملكة وفي امكانها الوصول اليه في أية لحظة يرحل فيها أخوها الملك انريكي الرابع لأي سبب من الأسباب.

بلغت ايزابيل الثامنة عشر من عمرها، وتبوأ مكانة عالية، تتغزل المصادر التاريخية الاسبانية بجمالها وتطري محاسنها، شقيقة الملك، وولية العهد التي لا ينقصها شيء على الاجمال.

فإذا وضعنا في الاعتبار أن الأميرات في البيوت الحاكمة كن ورقة رابحة في اللعبة السياسية لذلك العصر أمكننا أن ندرك كثرة ما كان يحاط حول الأميرة ايزابيل وكيف أن زواجها لم يكن بالأمر الهين وإنما كان مشكلة سياسية بالدرجة الأولى، ولذلك كثرت المشاريع والخطط حول زواجها دون أن يكون لها علم بذلك لأن الأمر لم يعد مصاهرة أحد البيوت المالكة فحسب، بل يعني امكانية الوصول الي عرش المملكة عند وفاة انريكي . (٢٢)

خطبت - قبل العاشرة من عمرها الى أمير فيينا Principe de viana ولم تتم الخطبة بسبب وفاة هذا الأمير قبل أن تصل ايزابيل الى السن المناسبة.

وفي أثناء الثورة العارمة ضد الملك انريكي الرابع، عرض عليه أحد خصومه الأقوياء الماركيز دي فيانا El marques de villana وأخوه قائد قلعة رباح Elmaestro de Calatrava أن ينتقلا

من صفوف الثائرين الى جانب الملك على أن يزوج أخته ايزابيل من أخيها بدرو دي خيرون Pedro de Giron ، ووافق الملك على ذلك تخلصا مما كان فيه من موقف صعب وسمح لهذا النبيل القشتالي أن يتوجه بقواته للحصول على الأميرة ايزابيل كزوجة له، ويروي سيليو كورتيس في كتابة عن ايزابيل أنها كانت في أوكانيا ocaña وأنها علمت بتلك الأخبار، وأنتابها فزع كبير حتى توسدت التراب تدعو الله أن يخلصها من ذلك المأزق إما بوفاة المتقدم لها أو وفاتها هي " لأنك لا ترضى لابنة وحفيدة الملوك، صاحبة الحق في مكانة أفضل أن تتزوج ممن هو دونها خلقا ومكانة " (٢٣) وكأن الله سبحانه قد استجاب لدعائها فقد توفي هذا النبيل فجأة وهو في طريقه اليها.

ولقد بدأت ايزابيل، في الحركة لتأخذ مصيرها بيدها مفكرة في مستقبل شعبها ومملكتها فيمن تختاره زوجا لها، ورغم أن البلاط والنبلاء لم يتوحدوا على شخص محدد، وإنما كان كل فريق يسعى لخدمة من سيجد في نجاحه مكسبا شخصيا له. كما كانت ايزابيل تسعى الى ارضاء أخيها الملك انريكي.

كان أبرز المرشحين للزواج منها الملك الفونسو الخامس Alfonso v ملك البرتغال، والذي لم يكن قانعا بما حققه من نجاح لبلاده على الأرض الافريقية، وإنما رأى في زواجه من الأميرة القشتالية بابا واسعا يحقق من خلاله طموحاته المترامية لتشمل مملكة واسعة مجاورة لبلاده، وبذل في سبيل ذلك مجهودا كبيرا، واعتمد على تأييد عدد كبير من نبلاء مملكة قشتالة، ورجال البلاط المحيطين بالملك انريكي الرابع.

وفدت سفارة برتغالية كبيرة الى قشتالة وهي واثقة من نجاحها لاعتمادها على تأييد الملك انريكي الرابع نفسه، وعازمة على تنفيذ ذلك الزواج بطريقة أو بأخرى، لكن الملك البرتغالي كان شيخا متقدما في السن، ولم يكن يلق قبولا لدى ايزابيل لاقتناعها بأن خطبته لها لم تكن سوى محاولة لتوسيع طموحاته، ولذلك عادت هذه السفارة مرة أخرى الى البرتغال دون أن تحقق نجاحا يذكر.

ومن هؤلاء المرشحين أيضا الدوق الونسو دوق بيري Duque de Barre وأمير منطقة غويانا Guyana وهو شقيق الملك الفرنسي لويس الحادي عشر Luis xl ووصلت بالفعل الى بلاط قشتالة سفارة فرنسية تزعم خطبة الأميرة لكنها لم تحصل الا على ردود دبلوماسية واجابات غير محددة قبل أن تعود أدراجها الى فرنسا.

أما الثالث فقد كان الأمير الأراغوني فرناندو والذي يعد ابن عم للأميرة ايزابيل وهو ابن الأمير

خوان الثانى Juan II ملك أراغون ونافار.

لم تكن الأميرة ايزابيل على سابق معرفة بهذين الخطيبين الأخيرين، لذلك أرسلت رسلها لتتعرف عليهما، كما أنها كتبت إلى عدد كبير من نبلاء بلدها وفرسانها تسألهم الرأي في أين مصلحة الوطن في زواجهما.

كان الاتجاه العام هو أن مصلحة البلاد تقتضي زواجهما من ابن عمها أمير أراغون الأمير فرناندو، وكانت المشكلة الحقيقية أمام اتمام هذا المشروع تتمثل في موقف الملك انريكي الرابع، والذي كانت له أفكاره ومشاريعه وليست هي بالضرورة ما كانت تفكر فيه الأميرة ايزابيل. لذلك كان لابد، إذا ما أريد لهذا الأمر أن يتم، أن تتصرف الأميرة ومن معها من النبلاء بحيث تمضي خطوات هذا الزواج دون أن يحاط الملك علماً إلا قبيل التنفيذ وبحيث لا يمكنه منع استكمال هذا المشروع، وأمكن اقناع ايزابيل لذلك.

بدأ التخطيط سرا لاحتضار الأمير الأراغوني إلى مملكة قشتالة، وتمكن النبلاء المحيطون بالأميرة ايزابيل من أخذ كل الاستعدادات لزواجهما، وكانت المفاجأة مذهلة وكاملة للملك انريكي الرابع الذي أبلغ بعد فوات الأوان بزواج أخته من ابن عمها الأمير فرناندو.

ويرى المؤرخون أن تلك الخطوة، التي تحمست لها أسرة " تراستامار " هي التي ترتب عليها توحيد أكبر مملكتين في شبه الجزيرة الأيبيرية وهما قشتالة وأراغون. (٢٤)

وقع ذلك الحدث الهام في ١٩ من أكتوبر من عام ١٤٦٩ ميلادية، هذا التاريخ الذي لا يشك اسباني في أهمية بالنسبة للتاريخ الاسباني عامة، ففي واقع الأمر فإن هذا التاريخ قد وضع الأساس الذي ستبنى عليه اسبانيا الحديثة، لأن الوريثين لأكبر مملكتين على أرض شبه الجزيرة، قد تزوجا، ومع أنهما قد احتفظ كل منهما بحقه في إدارة مملكته، إلا أنهما اتفقا على التعاون فيما فيه خير رعاياهما، ومن ثم بدأت الخطوات لتخطي العراقيل من أجل انقاذ اسبانيا والنهوض بها، لكي تصل إلى أحسن عهودها وأقصى قوتها على عهد الملكين الكاثوليكين فرناندو وايزابيل.

ومن أهم ما يلفت النظر في عقد زواج هذين الأميرين هي تلك الشروط التي على أساسها تمت الموافقة بين الطرفين ومنها : أن يتعهد فرناندو بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها، وأن يجعل مقر اقامته فيها، وأن لا يغادرها دون اذن ايزابيل، وأن لا يجري تعيينات أو قرارات في المملكة دون اذنها، وتعهد بالأخص أن يتابع الحرب ضد المسلمين في غرناطة. (٢٥)

أحدث خبر زواج ايزابيل من الأمير فرناندو هزة عنيفة في بلاط انريكي الرابع، وعمد النبلاء المحيطون به الي اقناعه بحرمانها من ولاية العهد على أساس أنها نكثت بالعهد التي قطعتها علم، نفسها في اتفاقيات El Campo de Guisando ، والمناداة بابنته الصغرى الأميرة خوانا Juana ولية لعهد من جديد. (٢٦) وكان معنى ذلك عودة الحرب الأهلية من جديد في قشتالة، وهكذا عاد الوضع السيئ يخيم من جديد على شبه الجزيرة الأيبيرية، فاشتعلت الحروب الأهلية حتى أصبحت حرب الجميع ضد الجميع، وأوشكت المملكة على الانهيار، وسادت الفوضى، وكثر قطاع الطرق والمارقون ورجال العصابات.

في هذه الفترة كانت ايزابيل تفكر في كيفية الأوضاع اذا ما أصبحت ملكة علي قشتالة، وكيف يمكنها اقامة دولة مستقرة في ظل ظروف شديدة الاضطراب، كما كانت تشعر بالكراهية وتحس بخطورة غير المسيحيين علي المملكة، وكيف أنهم كانوا يشكلون تهديدا داخليا وخارجيا، كما أنها كانت تبدي شعورا بالخوف على المسيحية بصورة عامة، وأنها قد أصبحت في خطر حقيقي، وذلك ابان الحرب بينها وبين أخيها الملك انريكي الرابع، فلقد كانت القوة العثمانية المتزايدة تفرض نفسها وسيطرتها على شرق أوربا، وما زال المسلمون متمسكون بجنوب اسبانيا ومملكة غرناطة، علاوة على إحاطة المسلمين المستمرة بالمسيحيين في المناطق الأخرى، ولذلك فإن الخلافات الداخلية في الممالك المسيحية الكاثوليكية كانت تثير قلق البابوية، ومن هؤلاء البابا سيكستو الرابع Sixto IV الذي كان يري بقلق شديد جدا القلاقل الداخلية في المانيا والطموحات غير المفهومة للملك لويس الحادي عشر بفرنسا، والحرب الأهلية في اسبانيا، لقد كان ذلك كله يشكل هما كبيرا للبابوية التي كانت تخشى أن تقع تلك البلاد جميعها لقمة سائغة للأتراك المسلمين.

ومن أجل ذلك سعت البابوية الى اتخاذ عدد من الاجراءات لكي تحتوي بعض تصرفات الأمراء وطموحاتهم وتوجهها نحو حرب صليبية جديدة، وأن يضعوا حدا لخلافاتهم الداخلية، وأن يتوحدوا لمواجهة المسلمين الذين يجب أن يكونوا العدو الأول الدائم المشترك.

ومن أجل هذا جاء الي اسبانيا الكاردينال بورجيا Borgia والذي أصبح فيما بعد البابا اليكساندرو السادس Alixandro VI .

بذل المبعوث البابوي جهودا جبارة لاطفاء الحرب الأهلية في قشتالة، التي تدخل فيها ملك فرنسا لويس الحادي عشر الي جانب الملك، لكن الفشل كان واضحا حتى جاء عام ١٤٧٤، حين مات الملك انريكي الرابع عن عمر يناهز الواحدة والخمسين (٢٧)

ايزابيل ملكة علي قشتالة :

بويغت الأميرة ايزابيل ملكة علي قشتالة في ١٣ ديسمبر ١٤٧٤ في معظم انحاء قشتالة ماعدا بعض المدن القليلة التي كانت خاضعة لقوات الماركيزدي فيانا أحد أكبر أنصار الملك المتوفي، ويرى بعض المؤرخين أن هذه المدن سارعت الى اعلان ولايتها للملكة ايزابيل بما في ذلك مدينة زامورا مركز المقاومة ضد الملكة فيما بعد (٢٨) بينما تشير كثير من المؤلفات الى أن الحرب الأهلية قد بدأت بين أنصار الملكة ايزابيل وأنصار الأميرة خوانا ابنة الملك انريكي الرابع، وأن أنصار هذه الأميرة قد قدموا مبايعتهم وعرضوا عرش المملكة علي الملك الفونسو الخامس ملك البرتغال، الذي قدم بجيشه غازيا لقشتالة وقاتل المناداة به ملكا في مدينة Plasencia وبايعته بعض مدن منطقة جليقية Galecia وليون Leon، لكن الأمير فرناندو زوج ايزابيل تمكن من الانتصار على الملك البرتغالي في منطقة Toro y albuera عام ١٤٧٦م.

انسحب الملك الفونسو البرتغالي بعد هزيمته الى البرتغال ثم ما لبث أن عقد معاهدة في منطقة Trujillo حيث أعلن تخليه عن لقبه كملك لقشتالة، وتخليه عن مشروع زواجه من الأميرة خوانا ابنة الملك، التي فضلت بعد ذلك الالتحاق بالحياة الديرية، وبالفعل فإنها عزلت نفسها في دير Clarisas de Coimbere (٢٩) وبذلك خلص عرش قشتالة للملكة ايزابيل وزوجها الأمير فرناندو الأراغوني وذلك عام ١٤٧٩م ويرى الأستاذ محمد عبدالله عنان أن اسبانيا قد بدأت في ظلها عصرا من القوة والعظمة والسؤدد لم تشهده في تاريخها من قبل، وأنه بحق هو فاتحة عصرها الذهبي، وأصبح زوجها فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكي من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية، وأوفرها عزما وهمة، وكان يتمتع بهمة فائقة سواء في الادارة او في ميادين الحرب والسياسة.

بيد أن هذا الجانب الحسن من سياسة الملك فرناندو كانت تغشاه صفات سيئة فقد كان أميرا لا وازع له يجنح الى سياسة الغدر، ومجانبة الوفاء، وكان رجل الفرصة السانحة يلتمس الى تحقيق أطماعه العظيمة أي الوسائل مهما كانت تجانب المبادئ الأخلاقية المقررة أو مقتضيات الفروسية والوفاء، مما بدا جليا في معاملته للأمة الاسلامية المغلوبة.

واذا كانت ايزابيل تتمتع هي الأخرى بالكثير من العزم والذكاء، وكانت تثير برقتها وتواضعها واحتشامها حب الشعب القشتالي واعجابه فإنها في نفس الوقت كانت تجيش بنزعة دينية عميقة، تذهب أحيانا مذهب التعصب المضطرم، وكانت تقع تحت تأثير الأخبار المتعصبين، وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم.

وكانت مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية يذكي في نفس هذه الملكة الورعة التي تنعت بالكاثوليكية، أشنع ضروب التعصب، وتحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسباني، وإقرار كل ما جنح الى ارتكابه باسم الدين من الأعمال والجرائم المثيرة. (٣٠)

السياسة الداخلية للملكة في قشتالة :

بدأت ايزابيل حكمها باشعار الجميع بإرادتها وقوتها وعزمها على فرض سيطرتها، فهي الملكة، أما زوجها فهو ملك أراغون، وأن إرادتها في قشتالة هي السائدة وكان عليها أن تفرض هيبة الحكم، وإرادة السلطان بمحاكمة الخارجين على القانون، ومعاقبة قاطعي الطريق.

كانت المشكلة الكبرى امام الملكة وزوجها لكي تعيد السلام الي ربوع وطنها، وتنشر الأمن فيه تكمن في التغلب على ثورات النبلاء الذين تعودوا على السلطة والسيادة أبان حكم أخيها، وتعارض ذلك مع ما ترغب فيه من اقرار سلطة الملكة، وبسط سيادة القانون عل المملكة.

ومن الغريب أن أقوى أعدائها الآن تمثل في الماركيزدي فيانا Marqués de Villana ورئيس أساقفة طليطلة Alonso carrillo الخليف القديم لها والذي كان من أكبر أنصارها وهي أميرة، والذي وقف الى جانبها باستمرار في مواجهة أخيها ولعل هذا فسر لها أن مواقف رئيس أساقفة طليطلة لم تكن حرصا منه على مصلحتها، بل هي في الواقع طموحات شخصية للأسقف كان يسعى اليها مستغلا في ذلك ما كان بينها ومن الملك انريكي الرابع من خلاف، ولقد حرصت الملكة وزوجها على ارضاء الأسقف بكل وسيلة، لكنها لم تستطع الاستجابة لكل طموحاته مما جعل الأسقف الطليطلي ينحاز الى النبلاء المتمردين عليها

بدأت الملكة حذرة في خطواتها في مواجهة هذه المشاكل بالاعداد الكافي لكل خطوة تخطوها لكن مع التصميم الواضح على بسط سيطرتها كملكة علي المملكة، واطعة لكل قضية حلا مناسبا، ووجد زوجها - ملك أراغون الآن - في تصميمها وشدة إرادتها ما جعله يتفاني في تقديم المساعدة لها، ولقد تعاونوا معا بفاعلية وذكاء وتمكنا معا من تخطي العقبات واحدة بعد الأخرى. (٣١)

سياسة الملكة ضد غرناطة الإسلامية :

كانت الملكة ايزابيل تضطرم بالكراهية لمملكة غرناطة ولمن بها من المسلمين، ولقد جعلت من شروط زواجها من الأمير فرناندو أن تكون غرناطة هدفا أصيلا في سياستهما الرامية الى توحيد شبه الجزيرة تحت قيادتها، ولذلك فإنها عمدت منذ الأعوام الأولى لتولي الملكة الى الاستعداد لمحاربة مملكة غرناطة

كان يحكم غرناطة في تلك الأعوام السلطان أبو الحسن علي بن سعد، والذي استقام له ملك الأندلس، ودانت له جميع بلاد الأندلس، ولم يبق له فيها معاند. (٣٢)

حاول السلطان أبو الحسن الحصول على هدنة من الملكين الكاثوليكين، فبعث اليهما في أشبيلية عام ١٤٧٨م وفدا رسميا غير أن الملكين الجديدين أبيا تجديد الهدنة متعللين بأن أبا الحسن لم يتعهد بدفع الجزية التي كان يدفعها اسلافه من قبل، ويرفض أبو الحسن ذلك، ويمنحه الملكان الكاثوليكين هدنة لمدة ثلاث سنوات حتى يفرغا اليه فيما بعد. (٣٣)

وفي الوقت الذي كانت تميل فيه قشتالة الى الوحدة الداخلية، والاستقرار والهدوء فقد بدأت غرناطة في الانحدار السريع نحو هوة قاسية من الفوضى الداخلية أهم سماتها تدهور الأوضاع الاقتصادية بسبب السيل المروع الذي أصابها في ذلك الحين مما جعل ملك أبي الحسن يبدأ في التفهقر والانتكاس والانتقاض. (٣٤)، ولذلك كان من الطبيعي جدا أن تتجه أنظار الملكين الكاثوليكين الى غرناطة مستغلين أية فرصة للتدخل في شئونها أو الاستيلاء علي بعض أملاكها، ولذلك ما أن قام السلطان أبو الحسن بالاغارة علي بلدة الصخرة El Castillo de La zahara وتقع على حدود الأندلس الغربية في شمال غربي مدينة رندة، وكان ذلك في ديسمبر عام ١٤٨١م حتى تحركت قوات قشتالة وهاجمت مدينة الحامة التي كانت في قلب المملكة الغرناطية، وفاجأت حاميتها مفاجأة كاملة ومن ثم استولت الجيوش القشتالية على المدينة رغم المقاومة الشديدة التي أبدتها السكان، وكان ذلك في فبراير ١٤٨٢ أي بعد ثلاثة أشهر فقط من استيلاء المسلمين على مدينة الصخرة، وتعتبر هاتان المعركتان البداية الحقيقية لحرب النهاية لمملكة غرناطة. (٣٥) ولقد هرع السلطان أبو الحسن في قواته لإنقاذ الحامة واستردادها وحاصرها بالفعل حصارا شديدا، لكنه لم يستطع اقتحام المدينة خاصة وقد انهالت عليها النجدات المسيحية وخاصة ما قدمه دوق مدينة شذونة El Duque de medina Sidonia وهو الدوق Enrique de Guzman مما أجبر السلطان أبو الحسن على رفع الحصار وترك مدينة الحامة في أيدي المسيحيين. (٣٦)

كان سقوط الحامة أو أن شنت الدقة هجوم المسلمين على بلدة الصخرة Zahara النذير الذي أشعل نار الحرب الأهلية في غرناطة بسبب ما كان يبدو جليا في الأفق من اشارات واضحة علي مستقبل غرناطة وتشيركل من المؤلفات العربية والإسبانية الى الحزن الذي أصاب أحد زهاد الأندلس في ذلك الوقت وأن الرجل صاح في وجه السلطان أبي الحسن قائلا : ويل لنا ، لقد دنت ساعتك يا غرناطة ولسوف تسقط الصخرة فوق رؤسنا ، ولقد حلت نهاية الاسلام في الأندلس. (٣٧)، لقد كان الاستيلاء على الصخرة بمثابة التحدي للملكي قشتالة اللذان ردا على ذلك بالاستيلاء على الحامة . ومنها بعد

ذلك لحصار مدينة لوشة Loja وهي مسقط رأس الوزير الشهير لسان الدين ابن الخطيب لكن حاميتها الاسلامية دافعت عنها دفاعا مجيدا، وردته على أعقابها بقيادة الأمير الشيخ علي العطار ذلك الجندي الباسل، وكان في الثمانين من عمره، ومازال سيف الشيخ العطار محفوظا في المتحف الحربي museo del ejercito بمدريد (٣٨). بينما يرى الأستاذ عنان أن المسلمين تمكنوا من الاستيلاء علي بعض " الأنفاط " التي كانت تستعمل لحصار المدن، وكان لذلك ولاشك وقع عظيم بين المسلمين الذين فرحوا فرحا عظيما (٣٩)

شهدت الأندلس بعد هذه الأحداث تدهورا عظيما، فقد ثارت غرناطة على ملكها أبي الحسن، واضطرته للفرار الي مالقة malaga حيث كان بها أخوه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف "بالزغل"، ونادت غرناطة بابنه الأمير أبي عبدالله الصغير ملكا عليها.

اتجهت انظار الملوك الكاثوليكين إلى مدينة مالقة باعتبارها من القواعد الهامة المتبقية في مملكة غرناطة، علاوة على كونها بوابة الممرات الجنوبية المؤدية الى بلاد المغرب وسقوطها يعني في الدرجة الأولى تطويق العاصمة غرناطة، ويروي صاحب كتاب نبذة العصر، أنه لما كان شهر صفر عام ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م اجتمع مائة من زعماء النصارى وأقنادهم فى جمع عظيم، ولم يكن معهم ملكهم، وقصدوا قري بلش Velez، وشرقية مالقة يريدون أخذ أهلها وفسادها فلما وصلوا تصايح أهل تلك الجهات واجتمعوا رجالا دون فرسان وصاروا للنصارى في المضايق والأوعار والمخاتق ويقاتلونهم، ويقتلون منهم خلقا كثيرا، فلما رأى النصارى ذلك جعل الله في قلوبهم الرعب ووقع بينهم الخذلان، فانهزموا في تلك القرى والمخاتق والأوعار، وصاروا يتهافتون فيها تهافت الذباب والفراش في النار، والمسلمون في أثرهم يقتلونهم ويأسرونهم وكان الأمير محمد بن سعد بمدينة مالقة فلقي النصارى من ناحيته فقتل وأسر خلقا كثيرا، وأسر منهم ما ينيف علي ألفي أسير فيهم جماعة من قوادهم وأقنادهم، وهرب باقيهم. (٤٠)

حرك انتصار المسلمين في مالقة الأمير أبي عبدالله محمد أن يحاول الحصول لنفسه على نصر يثبت به من مكانته في غرناطة فخرج في قواته في ربيع الأول من عام ٨٨٨ هـ ابريل ١٤٨٣ م، منتهزا فرصة الاضطراب الذي أعقب هزيمة المسيحيين في أحواز مالقة الى مدينة قرطبة مكتسحا في طريقه عددا من الحصون والقلاع، وانتصر على بعض الجيوش الصغيرة التي قابلته، وعاد قافلا محملا بما معه من غنائم كثيرة، فاجتمعت عليه قوات النصارى في ظاهر قلعة اللسانة Lucena، ونشبت بين الجيشين معركة طاحنة دارت فيها الدائرة على المسلمين الذين ارتدوا بلانظام الي ضفاف نهر شنبيل، وتبعهم النصارى يقتلونهم، ويأسرون حتى لحقوا بالأمير محمد بن علي فدخل في غمار الناس واختفى

بينهم يقاتل مع المقاتلين حتي أسر مع من أسر من المسلمين، ولم يعرفه أحد من النصارى، وكانت هزيمة شنيعة قتل فيها خلق كثير، وآسر آخرون واستولي النصارى فيها علي كثير من الخيل والسلاح والدواب والمتاع. (٤١)

حينما عرف المسيحيون شخصية أسيرهم ملك غرناطة حتي أسرعوا بإبلاغ النبأ الي الملكين الكاثوليكين اللذان أمرا بأن يحمل الأسير الي قرطبة فورا وأن يعامل معاملة كريمة. فحمل الأمير الأسير الي قرطبة تحت حراسة مشددة، واحتشد أهل المدينة لرؤية موكب الملك الأسير الذي كان يرتدي عباءة من القטיפفة السوداء، ويمتطي حصانا أسود عليه سرج ثمين بينما عاد المسلمون الناجون الي مدينتهم وقد مزقتهم الهزيمة شر ممزق، وفتت الحزن عزائمهم، وارتاعت العاصمة الغرناطية لذلك بشدة، وكان لابد من استدعاء السلطان أبي الحسن مرة أخرى ليجلس على عرش غرناطة لكنه رفض بعد فترة ونودي بالأمير محمد بن سعد أمير مالقة ملكا علي غرناطة في نفس الوقت الذي استطال فيه العدو على بلاد الأندلس وقوي طمعه فيها. (٤٢)

وبدأت الحصون والقلاع الأندلسية تتساقط في أيدي النصارى الواحدة بعد الأخرى ففي عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م تمكن المسيحيون من الاستيلاء علي حصني قرطمة Cartama وديكوين Cain ، وفي نفس العام تقدموا الي رندة Ronda وقاتلوها قتالا شديدا وضربوها بالأنفطاط حتي تهدمت أسوارها، فلما رأى أهلها ما لا طاقة لهم به طلبوا الأمان، وخرجوا مؤمنين بما معهم (٤٣) ورغم انتصار المسلمين في موقعة ملكين، إلا أن المسيحيين تمكنوا من الاستيلاء علي حصن قنبيل Canbil وأخلى المسلمون مجموعة من الحصون الأخرى وغير ذلك من الأماكن والقلاع.

أما في عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م فقد قام النصارى بالاستيلاء علي البيرة وحصن المكلين وقلنبيرة مستخدمين الأنفطاط المشتعلة حيث تم استخدام تلك الأنفطاط في حصار حصن مكلين حيث انتقل العدو اليه، ونزل عليه بمحلته، وقرب منه بعدته وأنفطاطه، وقاتلهم قتالا شديدا، وهدم بعض الأسوار بالأنفطاط.

وكانت له أنفطاط يرمي بها صخورا من نار فتصعد في الهواء وتنزل علي الموضع وهي تشتعل نارا فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه، فكان ذلك من جملة ما كان يخذل به أهل الموضع التي كان ينزل عليها. (٤٤)

وتتابع سقوط الحصون الأخرى مثل حصن الضحة، واستولي النصارى علي جميع الحصون وقهروا بها غرناطة وأخذوا في بنائها وتحصينها، وتمنيعها، واصلاح شأنها، وشحنها بجميع ما تحتاج اليه من طعام وعدة ورجال وغير ذلك ليضيق علي غرناطة. (٤٥)

الموقف من الملك الأسير :

كان أبو عبدالله الصغير أول ملك مسلم يقع أسيرا في أيدي المسيحيين، ولذلك احتفظ به الملكان الكاثوليكيان أسيرا في قرطبة وتحفظا عليه تحفظا شديدا، ورفضوا في بادئ الأمر قبول أية محاولات لافتدائه، في المرة الأولى حين حاول والده السلطان أبو الحسن فداءه لا يباعث الحب له والشفقة عليه، ولكن لكي يحصل عليه في يده ويأمن شره ومنافسته، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة، وأن يطلق عددا من أكابر النصاري المأسورين عنده فأبى فرناندو وأثر أن يحتفظ بالأسير الى حين. وفي المرة الثانية حين حاولت والدته الأميرة عائشة فداء ولدها وأرسلت الى ملكي قشتالة سفارة علي رأسها الوزير ابن كماشة ليفاوضهما في الشروط التي يرضيانها للافراج عن الأمير الأسير. (٤٦)

جاء تطور الأحداث بعد ذلك في مملكة غرناطة لغير صالح المسيحيين، حيث انفرد الأمير محمد بن سعد بحكم مملكة غرناطة، وتوحدت من خلفه صفوف المسلمين، وكان هذا الأمير المعروف "بالزغل" شجاعا مثابرا كما لاح في الأفق إمكانية صموده أمام المسيحيين

لذلك فكر الملكان الكاثوليكيان وكبار رجال مملكة قشتالة وأراغون في الأسلوب الذي يحقق لهما النجاح دون وقوع أية خسائر في صفوف رجالهم، وذلك باعادة اشعال الحرب الأهلية في غرناطة، ومن ثم لم يترددا في الموافقة على اطلاق سراح الأمير الصغير أبي عبدالله وكانا على ثقة من أن اطلاق سراحه يعني في الدرجة الأولى اطلاق العنان للحرب الأهلية بين المسلمين، وهي الحرب التي فتكت بهم قبل أن تفتك بهم نيران اعدائهم المسيحيين، ويقول المؤرخ المجهول المعاصر لتلك الأحداث، ان العدو ارتحل الي بلاده فبقي بها بضعة أشهر، وسرح الأمير محمد بن علي وأمره بالخروج الى الحصون الشرقية وذلك كيبدأ منه ومكرا ليعمل الحيلة على تلك الجهة، فخرج الأمير محمد الى حصن بلش من حصون شرقية الأندلس، فقام بدعوته ودخله ثم جعل يكتب الى المواضع ويرسل الكتب ويعددهم بالصالح مع النصاري ان أطاعوه. (٤٧)

ينقل د. حتاملة عن بعض المؤرخين الاسبان، بأن مجلس المملكة قد عقد اجتماعا لبحث قضية الأمير أبي عبدالله الصغير، وأن الآراء كانت متفقة تقريبا على أن اطلاق سراحه سيساعد في إشعال الحرب الأهلية في غرناطة وأن الملك فرناندو قد وافق عليها، كما وافقت عليها الملكة ايزابيل والتي كانت غائبة عن الاجتماع لوجودها في ذلك الوقت في اقليم الباسك، ومن ثم تم الاتفاق مع الوزير ابن كماشة الحضرمي على الشروط التي يمكن بها اطلاق سراح الأمير، وتتفق المصادر العربية والاسبانية على تلخيصها علي النحو التالي :

أولاً : فيما يتعلق بأبي عبدالله تنص المعاهدة على :

- ١ - الاعتراف بطاعة الملكين الكاثوليكين.
- ٢ - دفع جزية سنوية قدرها أثنتا عشر ألف دويلة من الذهب.
- ٣ - الافراج عن ٤٠٠ أسير مسيحي ممن يوجدون في غرناطة يختارهم ملكا اسبانيا ثم اطلاق سبعين اسيرا كل عام ولمدة خمس سنوات.
- ٤ - ان يقدم أبو عبدالله ولده الأكبر مع من عدد من أبناء الأمراء وعلية القوم ليكونوا رهائن يضمنون حسن الوفاء.

ثانيا : فيما يختص بالملكين الكاثوليكين تنص المعاهدة على :

- ١ - الافراج عن أبي عبدالله فورا.
- ٢ - الا يكلف أبو عبدالله في حكمه بأي أمر يخالف أوامر الشريعة الاسلامية.
- ٣ - أن يعاون الملكان الكاثوليكيان أبا عبدالله في اخضاع المدن لسيادته على أن تعترف هذه المدن بطاعتها أيضا للملكين الكاثوليكين. (٤٨)

بدأت سياسة الملكين الكاثوليكين في التفريق بين مسلمي غرناطة تؤتي ثمارها، فعلى الرغم من أن الدعوة للأمير أبي عبدالله الصغير لم تكن كبيرة في بادئ الأمر، واقتصر نشاطه في بعض الحصون الشرقية فقط، وعلى الرغم من ازدياد قوة الأمير أبي عبدالله الزغل، وازدياد أنصاره يوما بعد يوم، الا أن رضى البيازين بمدينة غرناطة قد تمكنت منه بعض شياطين الفتنة الذين وسوسوا الى طائفة منه من أجل الشر والفساد بقبول دعوة الأمير أبي عبدالله الصغير حيث يمكنهم الاستفادة من صلحه مع النصارى. (٤٩)

ونجح هذا الأمير في التسلل الي رضى البيازين في غفلة من عمه الأمير محمد بن سعد واجتمعت معه تلك الطائفة الفاسدة، وانضم اليه آخرون، واشتدت عصابته وغلظت دعوته، وأمر مناديه ان ينادي : ان له صلحا مع النصارى، فقام أهل البيازين بدعوته ولم يقبل اهل غرناطة ما ذكر من الصلح وقالوا : انه ليس بصحيح.

فاشتعلت نار الفتنة بين اهل رضى البيازين وبين أهل غرناطة، واشتد ضرامها، وبلغ العدو دمره الله ما أمله ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

ويفصل صاحب كتاب نبذة العصر ضراوة القتال بين أهل المدينة الواحدة، وكيف أن العدو - دمره الله - أمد أمير البيازين بالرجال والأنفاط والبارود، والقمح والعلف والبهاائم والذهب والفضة وغير ذلك ليشد به عضد الفتنة ويقوي الشر. ومحاولات باقي أهل غرناطة اقتحام ريبض البيازين بالقوة وبلاستعانة بسكان أهل بسطة وسكان وادي آش، وكيف أن الحرب ظلت مشتعلة بين الطرفين، والعدو - دمره الله - يدبر الحيلة عليهم. (٥٠)

كان ذلك ما يتمناه القشتاليون، وما يؤسف له أن أحدا من المسلمين في ذلك الحين لم يكن متنبها الي خطورة ما يجري، بل لقد وصل الأمر الي أن الكراهية بين الفريقين المسلمين كانت أكثر حدة وأشد ايلاما من الكراهية التي كانوا يحملونها لأعدائهم المسيحيين على ما يقرر أحد المؤرخين الإسبان حيث يقول : انقسمت السلطنة الاسلامية في غرناطة الي قسمين متعادين تتجلى بينهما الكراهية بأكثر مما هي بالنسبة للمسيحيين، وأن هذا الوضع هو الذي هيا للمسيحيين أفضل فرصة لاقام حرب الاسترداد La reconquista . (٥١)

ولقد جني النصرى أول ثمار هذه الحرب الأهلية بين الأمير أبي عبدالله الصغير وعمه الزغل حيث تمكنوا من الاستيلاء علي مدينة بلش Velez دون قتال وذلك في ربيع الآخر عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م وسلمت لهم المدينة ولم تجد من يدافع عنها، حتي الأمير الزغل حين خرج يقواته لمحاولة انجاد المدينة فساروا اليها، وبينما هم سائرون اذ قامت كرة ودهشة، فانهزموا في ظلام الليل من غير لقاء عدو ولا قتال فرجعوا منهزمين مفلولين الي محلتهم فباتوا ليلتهم تلك، وفي الغد أتاها الخير أن العدو استخلص مدينة بلش فسقط في أيديهم وانهزموا من غير قتال، ويرجع كل واحد منهم الي وطنه. (٥٢)

الاعوام الأخيرة من حياة دولة المسلمين في الأندلس :

وصلت الأحوال الي درجة شديدة من السوء والتناحر والقتال بين المسلمين، فقد انتقضت غرناطة علي الأمير محمد بن سعد وبايعت للأمير أبي عبدالله الصغير وكان ذلك في جمادي الأولي عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، ودخل هذا الأمير غرناطة وقتل القواد الذين كانوا بالبلد يقاتلون، واضطر الأمير محمد بن سعد الي الالتجاء الي وادي آش واستغل المسيحيون تلك الأوضاع الجديدة فاتجهوا الي الاستيلاء علي مالقة Malga فنزل عليها وحاصرها حصارا شديدا لم ير مثله، واحاط بها من كل جانب ومكان برا وبحرا ولقد بذل سكان المدينة ما كان في وسعهم أن يبذلوه دفاعا عن بلدهم، وقاتلوا عنها قتالا شديدا، ورغم شدة الحصار وقلة المؤنة وخيبة الأمل في النجدة الا أنهم أظهروا صبرا

عظيما، وجاهدوا جهادا أميناً حتى نفذ ما عندهم من الطعام، وأكلوا ما كان أمامهم من المواشي من خيل ويغال وحمير وكلاب وجلود وورق الشجر وغير ذلك من الأشياء التي يمكن أكلها حتى فني ذلك كله، وأثر فيهم الجوع أثراً عظيماً، ومات كثير من نجدة رجالهم الذين كانوا يوالون الحرب والقتال، فحينئذ اذعنوا، وطلبوا الأمان، فاحتال عليهم العدو حتى دخل البلد بمكر ومكيدة، واسرهم كلهم، وسبى نساءهم وأولادهم، واحتوى علي جميع أموالهم، وفرقهم علي أهل دخلته وملته فإننا لله وأنا اليه راجعون. ^(٥٢)، ويعترف المؤرخ الملقب " جيليان روبيليس Gullén Robles بالشجاعة الفائقة للمسلمين في دفاعهم عن مدينتهم وبين بصورة واضحة أسماء القادة والنبلاء القشتاليين الذين شاركوا في الهجوم عليها وكيفية قيام المسيحيين بقطع كل الطرق البرية والامدادات البحرية، مشيراً الي محاولات اجبار المسلمين علي تسليم المدينة ومن ذلك قيام الملكة ايزابيل بإرسال وفد مسيحي ومعهم أحد المترجمين اليهود واسمه " صمويل " الذي تمتع بعد ذلك بمكانة عالية في مالقة بعد غزوها، وأوضح الوفد لأهل المدينة أن الملكة ايزابيل في بلاطها تنتظر ردا منهم علي ما أمرت به من تأمينهم علي أنفسهم وأموالهم والسماح لمن يشاء منهم بمغادرة المدينة بكل ما يحمله من الأمتعة والذهب سواء كان متجها الي افريقية او الي أي بلاد أخرى داخل مملكة قشتالة أو غيرها. لكن المقاتلين بقيادة احمد الزغري Ahmed el Zigri ونائبه علي دردوس Ali Durdis رفضوا ذلك وأصرروا علي القتال حتي النهاية، وعملوا علي زيادة التحصينات.

ومن الواضح من هذا الكتاب مدى تعاون الملكة ايزابيل مع زوجها الملك فرناندو وجميع قوات اسبانيا مستغلين كل فرصة متاحة حتي تمكنوا من الاستيلاء علي المدينة. ^(٥٣)

وباستيلاء النصاري علي مالقة، ومن قبلها مدينة بلش خلصت له جميع البلاد الغربية، ولم يبق في تلك النواحي للمسلمين موضع واحد ^(٥٤) وفي العام التالي ٨٩٣هـ/١٤٨٨م تمكن العدو من الاستيلاء علي جميع الحصون الشرقية، واستولي علي هذه الحصون كلها غدرا ومكرا من غير قتال ولا حصار ولا تعب، وصارت جميع حصون الشرقية في قبضته وتحت إيلته ثم رجع الي بلاده من قشتالة.

وفي عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م اتجه الاسبان لحصار مدينة بسطة، واستولت قواتهم وهي في طريقها الي المدينة علي عدد من الحصون القريبة منها، وحاصروا المدينة حصارا شديدا في الوقت الذي دافع أهلها عنها دفاعا مجيدا، وطال الحصار، وازداد الصمود حتي كان أوائل عام ٨٩٥هـ ١٤٩٠م حين تم الاتفاق علي تسليم المدينة صلحا علي أن يخرج منها المقاتلون بخيلهم وأمتعتهم وأسلحتهم، فساروا

الي مدينة وادي آش وأخلوا البلد للفاحين، ومضي الملك الاسباني قاصدا المرية Almeria ولم يمر علي بلد أو حصن الاودخل أهلها في ذمته وتحت طاعته من غير حصار ولا قتال. (٥٥)

ان من يتأمل عنوان كتاب ابن عاصم الغرناطي "جنة الرضي في التسليم بما قدر الله وقضى" ولقد كتب قبل الفترة التي نتحدث عنها بحوالي ٢٥ عاما، ويطلع ما أورده فيه من أخبار وحوادث يدرك بسهولة المنحدر الذي وصل اليه المسلمون نفسيا، بحيث أصبحت الأمور أمام أعينهم غير واضحة، ولم يعد باديا لهم الاشبح النهاية التي تخيم على مستقبلهم غير المضمون في شبه جزيرة الأندلس.

وتزداد الأحوال سوءا بعد ذلك التدهور السريع في أحوال المقاومة الاسلامية، وبعد ذلك التساقط المتتابع للمدن والحصون الأندلسية، علاوة على الحروب الأهلية المستمرة والتي رأت في خصومها من الفصائل الأخرى عداوة أشد ضراوة من عداوتها لأعدائها الحقيقيين الذين يسلبونهم النفس والمال.

لذلك لم يكن مستغربا ذلك التطور الغريب من الملك الغرناطي محمد بن سعد والذي شهر بالشجاعة والحنكة والسياسة، وله كل ذلك التاريخ العظيم في الدفاع عن بلاده، حيث نراه بعد سقوط مالقة وفقد مراكزه في غرناطة نراه يتفق مع الملكين الكاثوليكين، وينضم تحت لوائهما، نكاية في ابن أخيه أبي عبدالله الصغير، وقدم لهذين الملكين مدينة وادي آش Guadix ومدن الزناتي Las valles del zenete، وجميع المناطق الجبلية الواقعة بين وادي آش وبين غرناطة، وأراضي أخرى كثيرة. (٥٦) ويؤكد صاحب نبذة العصر تلك الأخبار وأن ملك قشتالة قد قبض ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تعب ولا نصب، فإنا لله وإنا اليه راجعون، وأن ذلك كان علي وجه الفرصة والانتقام من ولد أخيه الأمير محمد بن علي وقواده لأنهم كانوا في غرناطة، ولم يكن تحت طاعتهم غيرها فأراد بذلك قطع علائق غرناطة لتهلك كما هلك غيرها. (٥٧)

كما أنه ليس غريبا موقف القائد يحيى النجار زعيم بسطة وألمرية وصهر الأمير محمد بن سعد فعلى الرغم مما أبداه من بسالة في المعارك التي نشبت مع القشتاليين، فإنه رأى في النهاية أن يترك هذا الصراع اليائس، وأن يفوز من المعركة بأحسن ما يستطيع لنفسه ولذويه، وقد عرض الأستاذ محمد عبدالله عنان رحمه الله لنص الوثيقة التي عقدت بين هذا القائد وبين مندوب الملكين الكاثوليكين الدون جوتيري دي كاريناس، وهي تعرض بمحتوياتها المثيرة صورة من ذلك الدرك المؤلم الذي يدفع اليأس اليه أولئك القادة الذين يغدون بعد حياة حافلة بالاخلاص والبسالة تحت اغراء العدو وهباته، خونة مارقين مرتدين. (٥٨)

غرناطة الموطن الأخير :

سلمت المربة في شهر ربيع الأول ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م، ولم يتبق الا العاصمة غرناطة وكان يحكمها الأمير محمد بن علي المعروف بأبي عبدالله الصغير تحت شروط معينة اشترطها للملكين الكاثوليكين عند وقوعه في أسرهما للمرة الثانية عند استيلائهما علي لوشة. (٥٩)، ويرى الأستاذ عنان ان أبا عبدالله قد عاد الي غرناطة، واسترد العرش ومن ورائه تأييد فرناندو وعونه، ويقول، انه بالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصلة فإن بعض النصوص القشتالية تذكر لنا أن أبا عبدالله، قد تعهد في هذا الصلح بأن يسلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكين، متي تم تسليم بسطة والمرية ووادي آش، وعلى أية حال ففي فاتحة عام ١٤٩٠م أرسل الملكان الكاثوليكيان الي السلطان أبي عبدالله، سفارة على يد فارسين هما كونثالو فرنانديث قائد حصن البورة، ومرتين الاركون قائد حصن موكلين لبخاطباه في موضوع تسليم غرناطة ذاتها ولكنه اكتفى بأن طلب الي أبي عبدالله تسليم مدينة الحمراء أو قصور الحمراء مقر الملك والحكم وأن يبقى مقيما في غرناطة في طاعته وتحت حمايته أسوة بما فعلته سائر نواحي الأندلس، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الإقامة فيها. (٦٠)

وتشير عبارات كتاب نبذة العصر الي تأكد الملكين الاسبانيين من موافقة سلطان غرناطة مما يعني وجود سابق اتفاق بينهما، يقول الكتاب وفي هذه السنة (٨٩٥هـ) بعث ملك النصارى الي صاحب غرناطة محمد بن علي أن يعطيه مدينة الحمراء، وما قطع الوادي لجهة الحمراء من غرناطة، ويترك للأمير المذكور محمد بن علي سائر البلد والدخول في ذمته كما دخل سائر الأندلس، وظن أن ذلك يتم له فأطمعه الأمير محمد بن علي في ذلك، فخرج صاحب قشتالة فرحا مسرورا بمحلته لقبض مدينة الحمراء وغرناطة وللتزهة فيهما، وخرج معه الصبيان والنساء بقصد التزهة، ولم يظن أن في مدينة غرناطة مدافعا له ولا مقاتلا ولا معاندا. (٦١)

ويؤكد المقرئ هذه الرواية حين يروي أنه عندما استولى المسيحيون علي وادي آش أباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة - محمد بن علي - مكرامنه وخداعا ودهاء، ثم بعث في السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما يمكنه عمه من القلاع والحصون ويكون تحت إيايته، ويعطيه مالا جزيلا علي ذلك، وأي بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه، قالوا : وأطمعه صاحب غرناطة في ذلك، فخرج العدو في محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء علي غرناطة، وهذا سر بين السلطانين. (٦٢)

ولقد وقف أعيان غرناطة في وجه هذا المشروع، وابدوا حماسا شديدا للجهاد مما دفع بالمسيحيين الى الاغارة على مرج غرناطة وافساد مابه من زرع، وتحطيم كل ما كان يقع تحت ايديهم من أملاك المسلمين لكنهم أقلعوا عاندين حتى يتموا استعدادهم لحصار المدينة والاستيلاء عليها بالقوة.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن المسلمين، وقد تملكهم الاحساس بدنو المصير قد أخذتهم نوبة من الحماس الشديد لانقاذ أنفسهم، ومن ثم عقدوا العزم على الجهاد والثبات، وتحلقوا حول أميرهم أبي عبد الله محمد بن علي الذي لم يجد بدا من قيادة قواته والخروج على رأس المجاهدين يحاول أن يسترد بعض الحصون التي سبق لها أن سقطت في أيدي المسيحيين حتي تقوى بها دفاعات غرناطة، فتمكنوا من استرداد قرية البذول عام ٨٩٥هـ، كما استرجعوا قرى البشارة وأجلوا من كان هناك من النصاري أو من كان يمالئهم من المسلمين، وبعد ذلك توجهوا الى حصن أندرش الذي كان يقطنه الأمير محمد بن سعد عم الأمير محمد بن علي والذي كان قد سبق له الانضواء تحت لواء النصاري كما سبق القول - وحاصرت فرسان غرناطة الحصن، وهرب محمد بن سعد ومن معه الى المرية، ودخل الغرناطيون الحصن، واسترجعت تلك الجهات كلها الى الاسلام. (٦٣)

واستمر المسلمون يحاولون استرداد ما أمكنهم من القرى والحصون والقلاع مما سبب الكثير من المشاكل للملكين الكاثوليكين فعزموا على توجيه الضربة الأخيرة لمدينة غرناطة، ولذلك خرجا متوجهين الى غرناطة عام ٨٩٦هـ / ١٤٩١م في جيش كبير يقدر من خمسين الى ثمانين الفامن المقاتلين الفرسان والمشاة، ومعهم المدافع والعدد الضخمة والذخيرة الوفرة. (٦٤)

قام المسيحيون بالإغارة على القرى والحصون القريبة من غرناطة، واعادوا الاستيلاء عليها ثم ضربوا الحصار على غرناطة وبدأت المعارك ببعض استعراضات الفروسية التي أبدى فيها الأمير الغرناطي ضروبا من الشجاعة باعتراف الكتاب الإسبان. (٦٥)

ويؤكد صاحب كتاب نبذة العصر أن ملك قشتالة لم يستول على أي منطقة بسهولة، بل كان يقاتل المسلمين، ويقاتلونه قتالا شديدا، وأنه سعى للإستيلاء على قرية الفخار Alfacar فلم يزل يلح عليها، ويجلب عليها بخيله ورجله، ويطمع أن يجد فرصة، فلم يقدر عليها حتى قتل له عليها خلق كثير من الروم، ووقعت عليها ملاحم كثيرة بين المسلمين والنصارى، لأن المسلمين كانوا يلحون على حمايتها خوفا من أن يملكها الروم فتكون سببا في اخلاء قرى الجبل وحصار البلد. (٦٦)

ويؤكد بعد ذلك أن المسلمين قاتلوا عن كل شبر من الأراضي خارج غرناطة وفي كل ملحمة من هذه الملاحم يشحن كثير من انجاد الفرسان بالجراحات من المسلمين، ويستشهد آخرون، ومن النصاري

أضعاف ذلك، والمسلمون فوق ذلك صابرون محتسبون واثقون بنصر الله، يقاتلون عدوهم بنية صادقة ، وقلوب صافية ومع ذلك لم تنزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى والقتل والجراحات فاشيان في الفريقين سبعة أشهر الي أن فنيت خيل المسلمين بالقتل، ولم يبق منها الا القليل، وفني أيضا كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات. (٦٧)

كان الطريق القادم من جبال سييرانيفاذا Sierra Nevada (جبل شلير) هو مصدر المؤونة للمحاصرين في المدينة يأتيهم عن طريقه الطعام، وكان المحاصرون يأملون في رفع الحصار عند مجئ الشتاء، لكن آمالهم خابت حيث تبين لهم تصميم الملكين الكاثوليكين على استمرار الحصار حتى تسليم المدينة، وتجلّى ذلك عندما وقع حريق مدمر في معسكر الملكين نتج عنه دمار شامل للمعسكر تسبب فيه اهمال احدى وصيفات الملكة، لكن ما لبث الملكان ان شرعا في بناء مدينة بقيمان فيها على حصار غرناطة، وعمل فيها الجنود بهمة شديدة وسرعان ما برزت الى الوجود مدينة شنتفي Santafé أي الايمان المقدس، ولقد رفضت الملكة ابزابيل اطلاق اسمها على المدينة وأسمتها تلك التسمية التي تنم عن مشاعرها الدينية وحسن استغلالها للدين في رفع معنويات جنودها، وكان في بناء المدينة اشارة واضحة على تصميم الملكين الكاثوليكين على الاقامة حتي تسليم المدينة. (٦٨)

في نفس الوقت تسبب الشتاء في قطعة المؤونة عن المحاصرين في غرناطة، وأدرك الجوع كثيرا من الناس الموسرين، فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والأشياخ والعرفاء ومن بقي من أنجاد الفرسان، وتدارسوا الحال مع الأمير محمد بن علي، واتفقوا على مفاوضة النصارى، وبدأت بالفعل المفاوضات - مع اتهام صريح للأمير محمد بن علي ووزرائه بأنهم كانوا ضالعين مع النصارى في الصلح لكنهم كانوا يخشون العامة. (٦٩)

تسليم غرناطة :

يبدو أن المفاوضات كانت سهلة، أو على الأقل كان الملكان الكاثوليكيان يسعيان للحصول على المدينة أولادون النظر لما يعطونه من عهود ومواثيق، لذلك يقول المقري : وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بما ل جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة، فانقادوا اليها ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة، فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء. (٧٠)

كانت الشروط التي اشترطها أهل غرناطة سبعة وستين شرطا أهمها، أن يؤمنهم على أنفسهم وبلادهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم، وجميع ما بأيديهم، ولا يغرمون

الا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من المسلمين والنصارى بغير غبن، ومن أراد الجواز لبلاد العدو بالغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته، ويحمل في مراكبه الى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء، ولا شيء يلزمه لمدة من ثلاث سنين . ومن أراد الإقامة بغرناطة من المسلمين، فله الأمان على نحو ما ذكر. (٧١)

وفي نفس تاريخ ومكان توقيع معاهدة تسليم غرناطة بمعسكر الملكين الكاثوليكين في مدينة سانتافي Santa Fe تم توقيع معاهدة أخرى تضمنت الحقوق والإمتيازات التي يوافق الملكان على منحها للأمير الغرناطي أبو عبدالله محمد بن علي آخر سلاطين بني الأحمر، وكانت هذه الامتيازات سخية الى درجة ملحوظة مما يدفع بالشك في امكانية الوفاء بها، ولقد أثبتت الأيام أن هذه المعاهدات بالشكل الذي صيغت به لم تكن الا فخا نصب لأهل غرناطة ولأميرها حتى يمكن دخول المدينة بسهولة ثم يمكن نقض شروط هذه المعاهدات الواحدة بعد الأخرى، ومن المؤكد أنه لو تم الالتزام بها والمحافظة عليها واحترام بنودها لكان ذلك كفيلا بأن تستقر الأوضاع وتسود علاقات المودة بين الطائفتين المتعاديتين، لكن نقض هذه المعاهدة مادة وراء مادة كان السبب في كل ما حل بالمجتمع المسلم بعد ذلك. (٧٢)

لم يكن الملكان الكاثوليكيان مطمئنين تماما الى توقيع المعاهدة، والى نوايا التسليم بل كانا يخشيان العامة، ولذلك كان دخولهما البلد تمهيدا بفرقة من جيشهما فلما اطمأنّا من أهل البلد، ولم ير منهم غدرا سرح جنودهم لدخول البلد والحمراء، فدخل منهم خلق كثير، وبقي هو خارج البلد. (٧٣)

ويصف المؤرخ الاسباني - شديد التعصب ضد الاسلام والمسلمين - الأب خوان ماريانا El Padre Juan Mariana المتوفي ١٦٢٤م عن ثمانين عاما لحظات دخول الملكين الكاثوليكين الى غرناطة، بأنه حين تلقى جلالتهما رسالة اول يوم في العام الجديد بأنه تقرر أن يكون اليوم التالي هو يوم دخولها الى الحمراء، فإنه لا يمكن لنا أن نصف مدى السعادة التي جاشت في الصدور، وصدرت الأوامر بالاستعداد لكي يكون الثاني من يناير هو يوم العيد باستسلام هذه المدينة، ويجب أن يكون كل شيء جاهزا.

مضى الملك الى المدينة ومنها الى القلعة، محاطا بصفوف من الفرسان المدججة بالسلاح وكأنهم في الطريق الى معركة، تلمع في أيديهم الحراب والسيوف، حتى بدا منظرا مهيبا يبعث على الرغبة في المشاهدة، تبع ذلك بقليل موكب الملكة ومعها أولادها، ومن خلفها نبلاء المملكة وعظماؤها مرتدين أفخر الملابس وأعلاها قيمة مما كان يعقد اللسان لفخامتها وروعيتها.

وحيثما اقترب ذلك الموكب الفخم من أبواب قلعة الحمراء، خرج الأمير أبو عبدالله الصغير Boabdil el rey chico بخمسمائة من الفرسان علي خيولهم وتقدم محاولا تقبيل اليد الملكية للمنتصر، لكن الملك لم يسمح بذلك، عندئذ قال الأمير الغرناطي، ورأسه منكسة وعينه في الأرض، نحن رعاياك - أيها الملك المنتصر، وهذه المدينة، وهذه المملكة اسلمهما لك، واثقين من معاملتك لنا بالرحمة والعدالة " وبعد ان نطق بتلك الكلمات سلم مفاتيح قصر الحمراء الى الملك، وقام الملك بتسليم المفاتيح الى الملكة ايزابيلا التي أعطتها بدورها الى ابنها الأمير ثم انتهت المفاتيح الى يد القائد انيجو دي ميندوث كوند منطقة تينديلا Iñigo de mendoza, El Conde de Tendilla والذي عينه الملك محافظا على القصر وحاكما عاما على تلك المملكة وكذلك دون بدرو الغرناطي Don pedro de Granada كمأمور قضائي، وعين دون الونسو ابن بدرو الغرناطي Don Alonso كقائد عام للبحرية في المنطقة.

دخل الموكب الإسباني المنتصر بعد ذلك الى داخل الحمراء، يحيط بالملكين عدد ضخم من النبلاء ورجال الدين من أبرزهم رئيس أساقفة طليطلة، وإشبيلية، رئيس جماعة القديس يعقوب El maestro de Santiago، أمير قádiz El Duque de Cadez، والقس ايرتاندث دي طلبيرة وهو اسقف مدينة أفيلة Avila والذي أختير لكي يكون اسقفا علي غرناطة ولقد أقيمت صلوات الشكر المناسبة لهذه الحالة، ولقد قام كاردينال طليطلة برفع الصليب فوق أعلى قمة في برج الحمراء والى جانبيه تم رفع الشعار الملكي، وشعار القديس يعقوب وذلك وسط دوي هائل من هتافات الجنود وصيحات الفرح من الحاضرين في الوقت الذي ركع فيه الملك على ركبتيه تواضعا للرب الذي أعطى إسبانيا تلك العظمة راجيا اياه أن يجعل ذلك مستمرا والى الأبد. (٧٤)

ثم ان الملك أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى قرية أندرش من قري البشارة، فارتحل الأمير محمد بعياله وحشمه وأمواله، واتباعه فنزل قرية أندرش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به.

وتؤكد معظم الروايات التاريخية الاسبانية أن الأمير أبا عبدالله محمد بن علي بعد خروجه من قصور الحمراء، وهو في طريقه الى قرية أندرش قد أشرف أثناء المسير فوق تل عال علي غرناطة فوقف ينظر اليها، وهناك لم يتمالك نفسه فبكى، وهنا صاحبت به أمه الأميرة عائشة : ابك بكاء النساء ملكا لم تدافع عنه دفاع الرجال " وتعرف الرواية الاسبانية هذه الأكمة التي كانت مسرحا لذلك المنظر الحزين باسم شعري مؤثر هو زفرة العربي الاخيرة El último Suspiro del moro

موقف الملكين الكاثوليكين من هوريسكي الأندلس :

ان النظرة الموضوعية للشروط التي علي أساسها تم تسليم غرناطة يمكن أن تبين لنا أن هذه الشروط كانت متسمة بالكرم بل بالكرم الزائد " (٧٦) بالنسبة لوضع المنتصرين مما كان يعني انها لم تكن شروطا للالتزام بها بقدر ما كانت وسيلة لتيسير دخول المنتصرين المدينة دون مزيد من الخسائر، ولامتصاص الغضب الشعبي، وإزالة العقبات أمام سيطرتهم على المدينة تدريجيا ، وعندئذ يمكن للملكين الكاثوليكين مواجهة الشعب الأعزل الذي أصبح بعد ذلك عاريا من أية حماية ، ولا يملك من القوة ما يجعل الآخرين يحترمونه ما وقعوه معه من شروط أو يحافظون على ما بينه وبينهم من معاهدات (٧٧) وان المسألة لا تعدو كونها تهدة للأوضاع ريثما يتم تدبير قرارات جديدة لتصفية الوجود الاسلامي بغرناطة نهائيا ، حيث أن الحقوق والامتيازات التي أعطيت لهؤلاء هي في الحقيقة نوع من الرشوة لشراء الضمائر أمام عنف المقاومة العربية وخوفا من تجدها على يد عناصر مازالت لم تستسغ بعد معاهدة الاستسلام. (٧٨)، ويلخص موقف الملك فرناندو من الاتفاقيات تلك العبارات البسيطة التي يصفه بها أحد المؤرخين الاسبان كان أميرا شابا، محبا للحرب والمغامرة والتي قادها بكثير من الحنكة والدهاء، حتي قيل أن حكومته كانت حكومة عظيمة وكانت سياسته ملتزمة بالعهود والمواثيق - طالما كانت تلك تتفق مع طموحاته ورغباته. (٧٩)

لذلك كان من الطبيعي أن يبدأ الملكان سياستهما في غرناطة بأشعار أهلها بالالتزام بالعهود واحترام المواثيق حتي لا تحدث هجرة جماعية وحتى لا تحدث انتكاسة اقتصادية خطيرة في المنطقة وكان اختيارها لعدد من الشخصيات المعتدلة نسبيا لقيادة المدينة مؤشرا واضحا علي تلك السياسة، فتم تعيين الكونث دي تندلة فرنادو دي زفرا El Conte de tendilla Fernando de Zapra حاكما عسكريا عاما علي غرناطة، كما عينت Hernanda de Talavera كاهن الاعتراف الخاص بها أسقفا عاما علي غرناطة، ولقد كانت هاتان الشخصيتان من الساعين في هدوء لتحقيق مطالب الملكين الكاثوليكين، ولقد تنبه المعاصرون للأحداث الي أهداف هذه السياسة، فيقول صاحب كتاب نبذة العصر : وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام حتي كان النصراني يغيرون منهم ويحسدونهم ويقولون لهم : أنتم الآن عند ملكنا أعز وأكرم منا ... ووضع عنهم المغارم، وأظهر لهم العدل، حيلة منه وكيدا ليغريهم بذلك، وليشبطهم عن الجواز، فوقع الطمع لكثير من الناس، وظنوا أن ذلك يدوم لهم، فاشتروا أموالا رخيصة، وأمتعة أنيقة، وعزموا علي الجلوس مع النصراني. (٨٠)

ومع تلك السياسة بدأ الاسبان أيضا في خرق اتفاقيات تسليم غرناطة بعد أيام قليلة من دخول

غرناطة ففي يوم الخامس من يناير ١٤٩٢م وهو اليوم المخصص رسميا لدخول الملكين لغرناطة، قام الإسبان بالاستيلاء على مسجد الطيبين، أحد المساجد الجامعة في غرناطة، وحولوه الى كنيسة، ولم يتحرك المسلمون اذ أدركوا أن لا فائدة من الاحتجاج. ويقوا في أماكنهم ينتظرون مزيدا من الاعتداء على حقوقهم التي صانتها المعاهدة. (٨١)

ولم يكن هناك من شك في أن الملكة ايزابيلا هي التي تقف وراء تلك الأحداث، وينقل أسعد حومد عن " الكونت سيركور" قوله، أن الملكة ايزابيلا كانت هي الدافع المحرك لكل ماتم من خريق لنصوص المعاهدة، ويرى ان الانسان مضطر لأن يلقي بالمسؤولية في جميع هذه الأعمال، والتصرفات التعسفية الجائرة على عاتق الملكة ايزابيلا، فهي المرأة العاطفية القاسية التي لا تعرف اللين ولا الاعتدال، وقد أعمى بصيرتها الكره العنصري والديني الذي تكنه للعرب ودينهم، ولذلك فإنها في سبيل ارواء غليلها وشفاء حقداء لم تحترم كلمتها، ولا العدالة ولا حتى مصلحة عرشها. (٨٢)

طرد الملك أبي عبد الله من الأندلس :

خطا الملكان الكاثوليكيان خطوة أخري في سبيل الضغط على المسلمين في الأندلس، وذلك بتجريدهم من بعض رموزهم التاريخية السابقة، فرأيا ضرورة التخلص من سلطان غرناطة السابق واخراجه من الأندلس نهائيا، ورغم ما قدمه لهم هذا السلطان من خدمات ورغم دوره في التساهل معهم منذ وقوعه في أسرهم وارتضائه بعد ذلك شروط تسليم غرناطة وتعجله هذا التسليم حتى قبل الموعد المقرر في الإتفاقيات، الا أن ذلك كله لم يشفع له عندهما، وبدأت المفاوضات من خلف ظهره لشراء أملاكه واغرائه بالمال وتسهيل رحيله الى بلاد المغرب في عملية طرد واضحة المقاصد والأهداف. (٨٣)، ولم يجد هذا الملك من طريق الا أن يكتب رسالة الى سلطان فاس الشيخ الوطاسي يستسمح فيها الأذن له بالنزول في مدينة فاس، وهي رسالة أدبية عالية القيمة تعبر عن مستوى المسلمين الثقافي الذي لم يتأثر رغم شدة الخطوب، وقد أنشأها الكاتب المجيد البارع البليغ أبي عبدالله محمد بن عبدالله العربي العقيلي رحمه الله وسماها " بالروض العاطر الأنفاس في التوسل الي المولي الامام سلطان فاس ". (٨٤) ويرحيل الملك أبي عبدالله رحلت جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكري. (٨٥)

وازدادت حركة الضغط على المسلمين الأندلسيين تباعا - وخلال التسع سنوات التالية لاستسلام المدينة حاول ايرناندو دي طلبيرة أسقف المدينة ومن معه من القساوسة اقناع هؤلاء المسلمين بكل السبل على الانتقال الى الديانة المسيحية وقطع كل صلاتهم بتاريخهم ودينهم، وذلك في الوقت الذي

تزايدت فيه الضغوط على الملكة ايزابيل وزوجها للانتهاء من سياسة التسامح النسبية والعمل الجدي على التخلص من بقايا المسلمين في الأندلس، وكان علي رأس المتشددين الذين يرون سرعة تنصير المسلمين الأسقف فرانثيسكو خيمينيث سيشنيروس Francisco Jimenes Cisneros والذي أصبح فيما بعد عام ١٤٤٩م أكبر ممثل لعملية التبشير المسيحية، ومع هذا الرجل زادت الضغوط جدا على المسلمين، وبدأ في عمليات تنصير جماعية، ووضع المسلمين أمام خيارين كلاهما مر : اما التحول الى الديانة المسيحية أو التعرض لما لا طاقة لهم من الضغوط والتعذيب. (٨٦)

كان خيمينث مصرا على قيامه بتعمير مسلمي غرناطة بسرعة كبيرة، وساعده على ذلك ما أصدره الملكان الكاثوليكيان من قرارات بفرض ضرائب جديدة على المسلمين وذلك خلال الفترة من عام ١٤٩٥ - ١٤٩٩م، مما وضع مسلمي الأندلس ضمن اطار ضيق لا يملكون فيه حرية للحركة فزادت معاناتهم مع اشتداد ضغط الكنيسة على الملكين الكاثوليكين للقضاء على كل ما هو اسلامي، وتصوير المسألة على انها ضرورة روحية يجب الالتزام بها لصالح هؤلاء المسلمين، ولقد صور ذلك أحد المؤرخين الاسبان بقوله ، انه منذ أن استولي فرناندو على غرناطة، فان الأحرار كانوا يطلبون منه بالراح أن يعمل على سحق طائفة محمد - صلى الله عليه وسلم - من اسبانيا، وأن يحمل من أراد منهم البقاء حيا اما على التنصر أو أن يبيع أملاكه ويرحل الى بلاد المغرب. وأن تلك السياسة لا تعني أبدا نقضا لما سبق أن تم الاتفاق عليه أو توقيعه من معاهدات، بل ان المسألة اساسا انقاذ أرواح هؤلاء الهراطقة علاوة على حفظ سلام المملكة، لأنه من المستحيل أن يعيش هؤلاء في صفاء مع النصاري أو أنهم سوف يحافظون على ولاءهم للملوك ما بقوا على الاسلام الذي يحثهم على مقت النصاري اعداء دينهم. (٨٧)

بذل الكاردينال جهودا كبيرة في الضغط على المسلمين مما ترتب عليه قيام المسلمين بالثورة في حي البيازين وذلك في ديسمبر ١٤٩٩ لكنهم عادوا الى الهدوء بعد وعد الملك فرناندو بالعفو عن الثائرين . لكن الثورة امتدت الى أماكن أخرى كثيرة من قرى مملكة غرناطة وتمكن الثائرون من ايقاع الهزيمة بجنود الملكين الكاثوليكين في أكثر من موقعة وشكا الناس الى الملكين ما يتعرضون له مما حدا بالملكة ايزابيل وزوجها الي اصدار مرسوم في ٢٧/١/١٥٠٠م ينفيان فيه أن سياستها تقوم على تشجيع تحويل المسلمين الي المسيحية قسرا او اجبارا، ووجهت الي الجميع رسالة بهذا المعني يقولان فيها :

نما الي علمنا قول بعضكم بأن أوامرنا هي قسركم واكراهكم على تبني المسيحية ويجب أن تعلموا ان ارادتنا ورغبتنا لم تكن كذلك ابدا، وأن الأوامر والتعليمات واضحة في هذا الخصوص : أن

لا يجبر مسلم واحد على التحول الى المسيحية قسرا أو اكراها ومرة أخرى نؤكد لكم، ومقسمين لكم بديننا وبكلمتنا الملكية، أننا لم نعلم ولم نأمر بأن يتحول مسلم واحد الى المسيحية رغما عن ارادته، وليعلم الجميع بأننا نسعي لكي يكون جميع أتباعنا من المسلمين متأكدين من أنهم سيعيشون بيننا متمتعين بكل الحقوق التي يتمتع بها رعايانا وخدمنا " (٨٨)

ويبدو أن هذه التصريحات أو غيرها لم تكن الا محاولة لإمتصاص الغضب من الصدور أو تهدئة للأوضاع، أو أنه لم تكن الا تصريحات رسمية للآخرين وليس للعمل بها، حيث أنه من غير المفهوم أن تعود الملكة ايزابيل الى ارسال خطاب آخر بتاريخ ١٨/٢/١٥٠٠م قبل مرور شهر واحد على رسالتها الأولى لتؤكد في الخطاب عدم رضاها عما يجري من تنصير اجباري للمسلمين وأبنائهم، وتأتي هذه الرسالة أكثر تفصيلا عن سابقتها على النحو التالي :

" دونيا ايزابيل - والتي بفضل الله - ملكة قشتالة، اليكم أيها السادة القضاة والمحصلون، اعزائنا القدامى المسلمون، اتباعنا ورعايانا في جميع القرى والأماكن الجبلية في رندة وما ريبيليا والخارقية Garlua, Ajourquia، الى كل واحد منكم، تعلمون، أن سيدي الملك وأنا قد أصدرنا مرسوما بما نأمرنا من قولكم بأننا نرغب تحويلكم الى المسيحية بالقوة، ولقد كتبنا لكم رسالتنا لكي تكونوا مطمئنين ولكي نشهدكم على أن ارادتنا ورغبتنا ليست كذلك، وليكون معلوما بوضوح أن لا تحولوا الى المسيحية اكراها، لقد كنا وما زلنا نحترم قراراتنا الخاصة بأن تكونوا في أمان وأن تحفظوا بالعدالة، وأن تحترم كافة شروط المعاهدات التي عقدت معكم، والآن بخصوص شكاكم فقد جاءني محمد المغربي Muhamad Morav وقاسم موداجار Cacem Modagar، وحملوا الي شكاكم والتي تلتمسون فيها رحمتي وعدالتي ولتنفيذ ما جاء في قرارات سيدي الملك - تقصد زوجها - وقراراتي، والتي تؤكدون فيها حرصكم على بقائكم أتباعا مخلصين وأوفياء لخدمتنا، ولهذا أعود لكي أذكر أنني وسيدي الملك قد أمرنا باحاطتكم بالأمان والعدالة والسلام والاطمئنان، وإذا كان ضروريا، فإنني وسيدي الملك نعود من جديد الى التأكيد لكم مرة أخرى مقسمين بديننا وبكلمتنا الملكية، بأن الملك سيدي - وأنا لن يغضب لنا جفن ولن نسمح أبدا بأن يتعرض أي واحد منكم أو أي واحد من نسائكم أو ابنائكم أو أحفادكم للتنصير قسرا أو اجبارا أو ضد ارادته . وأنه قبل كل شيء يجب أن تتأكدوا من عطفنا وأملنا في أن تعيشوا متمتعين بالعدالة باعتباركم رعايانا الطيبين، وكما سبق أن بينا في رسالتنا أنا وسيدي الملك . (٨٩)

لكن تلك الرسائل لم تغن شيئا عن الواقع الأليم المتمثل في الضغط المتزايد الذي كان يمارسه الكاردينال خيمينيث ورجاله من أجل تنصير المسلمين أو اجبارهم علي التخلص من عقائدهم حتى

كثرت الثورات في كل أنحاء مملكة غرناطة القديمة، وتم القضاء علي هذه الثورات بقسوة شديدة، كما أنها إستخدمت ذريعة للتخلص من الروابط القليلة التي كانت مازالت معلقة بمعاهدات التسليم وشروطه، واتخذت اسبانيا في ظل الملكين الكاثوليكين سياسة ثابتة هدفها أن تكون اسبانيا مسيحية كاثوليكية لا يقطنها غير الكاثوليك، ولقد أوردت الرواية الاسلامية صورة قاتمة للأوضاع في تلك الفترة نعرض لها علي النحو التالي :

يلخص صاحب كتاب نبذة العصر الموقف عند حديثه عن الملك فرناندو زوج الملكة ايزابيل انه " دعاهم الي التنصير وأكرههم عليه وذلك في سنة اربع وتسعمائه من الهجرة، فدخلوا في دينه كرها، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق من يقول فيها لا اله الا الله محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الا من يقولها في نفسه وفي قلبه ... (٩٠)

أدارت الملكة ايزابيل باعتبارها ملكة قشتالة سياستها بحنكة وروية، ولذلك نجحت في سياستها الخارجية في ابعاد القوي الاسلامية عن نجدة المسلمين رغم وصول صرخاتهم الي سلاطين الممالك في مصر والي سلاطين بني عثمان في الآستانة لكن بفضل سفراء اسبانيا الذين جابوا العالم المعروف في ذلك الوقت لم يتدخل أحد لانقاذ الموريسكيين

من جانب آخر كانت سياسة ايزابيل الدينية تضمن لها تأييدا غير محدود من البابوية ومن جميع الممالك المسيحية الأخرى، ولاشك أن مطالعة كتاب فضائل الملكة ايزابيل " تطلعنا بما لا يمكن الشك فيه أن الملكة كانت شديدة التعصب لدينها وأنها تتملكها فكرة خدمة الكاثوليكية بكل الإخلاص والمحبة ولذلك نراها تحسن وتكثر من الصدقات والهبات الي الكنائس والأديرة والكاتدرائيات، كما توجه أموالا كثيرة الي الأساقفة والقساوسة والرهبان والشمامسة وخدم الكنائس . كما أنها عملت بكل همة لكي تنشر المسيحية لا بين الموريسكيين الأندلسيين فحسب، بل وأيضا بين سكان القارة الجديدة ممن عرفوا تاريخيا باسم " الهنود " ولقد كتب اليها كريستوفر كولومبس في ١٤٩٣/٣/١٤ يطلب منها قرارا بتحويل هؤلاء الهنود الي الكاثوليكية، وأنها كتبت اليه في ١٥٠٣/١٢/٢٠ طالبة منه استخدام المودة والمحبة لترغيبهم في المسيحية وأن عليه أن يبحث قبل كل شيء في فائدة أرواحهم عليك أن تقودهم الي ما فيه الفائدة لأرواحهم، الي ديانتنا الكاثوليكية المقدسة La Santa Fé Católica (٩١)

نهاية الملكة ايزابييل :

أصيبت الملكة ايزابييل بالمرض لعدة أشهر حتى أدركها الموت في الثالث والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٠٤م وذلك في مدينا ديل كامبو Madina del Campo ثم دفنت في مدينة غرناطة في الكاتدرائية التي احتلت مكان المسجد الجامع القديم، وخلفت على عرش قشتالة ابنتها الأميرة خوانا المجنونة تحت وصاية زوجها الأمير فرناندو. (٩٢)

بعد ان قضت علي دولة الاسلام في الأندلس، ووضعت الأساس للقضاء على بقايا المسلمين هنا، وهي سياسة ظلت ثابتة سار عليها حكام إسبانيا بعد ايزابييل حتي قرر الملك فيليب الثالث Filip III التخلص نهائيا من بقايا هؤلاء المسلمين، فقرر طردهم نهائيا خارج اسبانيا وذلك في عام ١٦٠٩م، بذلك طويت آخر صفحات تاريخ المسلمين على أرض الأندلس.

Garcia de Castro, Rafael :

(١)

Vertudes de la riena Católica, madrid 1961, p. 16.

(٢) يرى الأستاذ محمد عبدالله عنان ، أن هذه المعركة قد وقعت عام ١٣١٩م بالقرب من غرناطة وأنها كانت معركة هائلة قتل فيها الوصيان على عرش قشتالة وعدد كبير من النبلاء والأمراء القشتاليين (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧١ .)

(٣) المقرئ - نفع الطيب ، تحقيق الشيخ يوسف البقاعي ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٦ ص ١٤٣ - ٤٣٣ . محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس . ص ١٧٢ عبدالرحمن الحجبي : التاريخ الأندلسي الطبعة الأولى - بغداد ١٩٧٦ ص ٥٤٣ - ٥٤٥ .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ح ١ ، ص ٤٣٣ وانظر أيضا عنان : نهاية الأندلس ص ١٧٣

Suarez Fernandez. L. Historia de España, madrid 1970, pp.546.

(٥)

Gonzalez Ruiz : Isabel de España : p . q

(٦)

Gonzalez Ruiz : Isabel de España , p. q

(٧)

Gonzalez Ruiz : op. cit. , p . q

(٨)

Silio Cortes, Cesar : Isabel la Católica , pp. 23

(٩)

Gonzalez Ruiz : op - cit - pp- 18.

(١٠)

Silio Cortes , Cesar : Isabel la Católica, pp. 27

(١١)

Silio Cortes : op - cit . pp. 33.

(١٢)

Suarez Fernandez . Luis :

(١٣)

Historia de España, dirigida por, menendez

Pidal , Tomo XV , 2ª Edicion , madrid 1970 . pp. 240

Silio cortes : op . cit . pp. 44

(١٤)

Gonzalez Ruiz : Isabel de España , pp. 38.

(١٥)

Suarez Fernandez : La historia de España, pp. 554 - 555

(١٦)

Suarez Fernandez : op - cit - pp.

(١٧) وانظر أيضا كتاب

Altamira, Rafael : Historia de España y la civilizacion española , Tomo , pp . 616.

Ballesteros y Beretta , Antonio : Historia de España qª edición , madrid - 1957 , pp. 144 - 145.

Silio Cortes , Isabel la Católica, p. 59

(١٩)

Altamira : Historia de España , pp. 616. y silio Cortes Isabel la Católica , pp. 89.

(٢٠)

(٢١) يعتبر وصول الأميرة ايزابيل الى ولاية العهد حدثا هاما جدا ، لذلك فقد سجله جميع المؤرخين الاسبان ، وتكفي الإشارة الى

هذين الكتابين :

A - Ballesteroso : Historia de España , pp. 144 - 145

Suarez Fernandez : Historia de España , pp. 557 - 558

Silio Cartes : Isabel la Católica , pp. 74 (٢٢)

Silio Cortes : op. cit . pp. 71 - 73. (٢٣)

Ballestoso y Brelta , Historia de España , pp. 146 (٢٤)

Suarez Fernandez : Historia de España , pp. 558.

(٢٥) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص ١٨٢.

Altamira : Historia de España pp. 616 - 617 (٢٦)

Silio Cortes : Isabel la Católica , pp. 102 - 104. (٢٧)

Suarez Fernandez : Historia de España , pp. 561. (٢٨)

Terrero , Jcsé . Historia de España, Barcelona 1972, pp. 187 (٢٩)

(٣٠) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص ١٨٤.

Silio Cortes : op. cit. pp. 132- 133 (٣١)

muro , José : Historia de España , Madrid 1901 , p pp. 382 - 384.

(٣٢) مجهول المؤلف : نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق د. محمد رضوان الداية الطبعة الأولى - دمشق - ١٩٨٤م ص ٣٤

(٣٣) محمد عبده حاتم : محنة مسلمي الأندلس ، الطبعة الأولى ، الأردن ١٩٧٧ ، ص ١٧ - ١٨.

(٣٤) نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر ص ٤٥.

Suarez Fernandez, L. Historia de España , pp. 589 (٣٥)

Ballesteros y Beretta , Historia de España , pp. 191 (٣٦)

(٣٧) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص ١٩٥ . وكذلك أورد نفس القصة كتاب

Ballesteros y Beretta : Historia de España . pp. 191

(٣٨) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٥٥١

(٣٩) نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر ص ٦٠.

(٤٠) نفس المصدر ص ٦٣ - ٦٤.

(٤١) نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر . ص ٦٥ - ٦٧.

(٤٢) نفس المصدر ص ٦٨.

(٤٣) نفس المصدر ص ٧٠ - ٧١.

(٤٤) نبذة العصر . ص ٨١

(٤٥) نفس المصدر ص ٨٤

(٤٦) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٤٧) نبذة العصر ص ٨٤ . وما يؤسف له اعتراف المؤرخين جميعا حتى الاسبان منهم بأن الحرب الأهلية بين المسلمين كانت العامل المساعد الأكبر والسلاح الفتاك الذي قدم للمسيحيين أجل الخدمات " لقد كانت أخطر المساعدات التي قدمت للقوات المسيحية ، هي تلك الحروب الأهلية الدموية التي طحنت المسلمين بأيدي بعضهم البعض ، وذلك خلال محاولات المسيحيين استرداد غرناطة " . انظر في ذلك .

Gordejuela, marcus : manual de historia de españa Burgos, España, 1940, pp. 137.

(٤٨) محمد عبده حتامه : محنة مسلمي الأندلس . ص ٢٩ - ٣٠ وانظر أيضا

Florian, el caballero : Compendio de la historia de los árabes , Valladolid , España 1829 , pp. 130 - 131.

(٤٩) المقرئ : نفع الطيب ، ح ٦ ص ٣١٢ وينص على " نودي بالصلح في الأسواق، وصرخت به في تلك البلاد الشياطين، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين بغرناطة، وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى، وتبعهم بعض المفسدين المحبين تفريق كلمة المسلمين.

(٥٠) نبذة العصر في انتضاء دولة بني نصر ص ٨٤ الي ص ٨٨ .

Lozoya Marques de : Historia de España , Barcelona, España, 1967, Tomo 3, pp. 77. (٥١)

(٥٢) نبذة العصر ص ٨٩ - ٩٠ .

(٥٣) نبذة العصر ص ٩٢ - ٩٤ . ولقد أورد المقرئ رواية مؤلفة عن استيلاء النصاري علي مألقة مفادها أنهم أداروا عليها الخنادق والأسوار من البر والأجفان من البحر، ومنع الداغل عليها، وضيقوا عليها بالحصار الي أن فني ما عندهم من الطعام ، فأكلوا المواشي والخيول والحمر حتي ينسوا من ناصر أو مغيث من البر أو البحر فطلبوا الأمان، فوعدوا بذلك، خداعا من الكفار فلما تمكن منهم العدو أخذهم أسرى وذلك في أواخر شعبان ٨٩٢ هـ . المقرئ ح ٦ ص ٣١٧ .

(٥٤) نبذة العصر ، ص ٩٤ .

(٥٥) نبذة العصر ، ص ٩٨ .

(٥٦) محمد عبده حتامه : محنة مسلمي الأندلس ص ٤٢

(٥٧) نبذة العصر . صفحة ١٠٠ و ١٠١ .

(٥٨) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص ٢٢٥ ، ولقد أورد المؤلف في هذا الكتاب الشروط والإمتيازات التي تعهد بها الملكان لهذا القائد المسلم ان تنصر ودخل في خدمتهما ، وكذلك الشروط التي منحها لأهل بسطة، وكذلك أورد الشروط التي علي أساسها استسلم الأمير الزغل والمصير الذي آل اليه ، انظر الصفحات من ٢٢٥ الي ٢٢٨ من الكتاب .

(٥٩) تختلف المصادر العربية في أسباب وجود أبي عبدالله في مدينة لوشة ، وهل هو للمساهمة في الدفاع عنها أم أنه جاء لوشة للمساعدة في تسليمها حسب شروط اطلاق أسره السابق، وكثرت الأقاويل وصرحت الأكسن، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك - وأخذ البلد في جمادي الأولى سنة ٨٩١ هـ - وهاجر أهل لوشة - وبقي أبو عبدالله

مع الملك القشتالي (نفع الطيب ح ٦ ص ٣١٣ - ٣١٤).

(٦٠) محمد عنان : نهاية الأندلس ص ٢٣٠.

(٦١) نبذة العصر ص ١٠٢.

(٦٢) المقرئ : نفع الطيب ح ٦ ص ٣٢٠.

(٦٣) نبذة العصر ص ١٠٧.

(٦٤) عبدالواحد ذنون طه : دراسات أندلسية الطبعة الأولى، بغداد ١٩٨٦ ص ١٩٦.

Ballesteros y Beretta : Historia de España, pp. 195

(٦٥)

(٦٦) نبذة العصر ص ١١٨ - ١١٩.

(٦٧) نبذة العصر ص ١٢٠.

Ruiz Carnero : Historia de España, madrid 1943, pp. 170 - 171

(٦٨)

(٦٩) انظر في ذلك نبذة العصر ص ١٢٣ . وانظر أيضا نفع الطيب ح ٦ ص ٣٢٣ وانظر أيضا التحليل القيم للاستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه نهاية الأندلس ص ٢٤١ - ٢٤٢ . وهناك شهادة صريحة بأن تسليم غرناطة انما كان قد سبق الاتفاق عليه في لوشة ، وأن ذلك ظل سراخافيا حتي لا يطلع عليه العامة في غرناطة الذين كانوا أكثر ارتباطا بوطنهم ، وأكثر ايمانا بدينهم أوردها المؤرخون الاسبان اعتمادا علي ما وجدته المستشرق الأسباني mariano, Gaspar y Remiro

(٧٠) المقرئ : نفع الطيب ح ٦ ص ٣٢٣

(٧١) نبذة العصر . ص ١٢٤ . ويورد المقرئ مزيدا من شروط الصلح ح ٣٢٤ - ٣٢٥ . أما الأستاذ محمد عبدالله فقد أوردها - علي يقول - كاملة اعتمادا علي المصادر الاسبانية ، وذكر أن عدد نصوصها ستة وخمسين مادة أوردها جميعها في كتابه نهاية الأندلس ص ٢٤٤ وما بعدها . أما الدكتور عبدالله جمال الدين فيجعلها أكثر من خمسين مادة يورد منها نصوصا خمسة وأربعين شرطا ، انظر كتابه عن " المسلمون المنصرون ص ٢٢ - ٢٩ .

(٧٢) عبدالله جمال الدين : المسلمون المنصرون الصفحات من ٣٠ الي ٣٣ .

(٧٣) نبذة العصر ص ١٢٥ .

(٧٤) يعتبر الأب ماريانا من كبار المؤرخين الإسبان ، وهو بطبيعته الدينية كان من أشد الناس تعصبا ضد الاسلام والمسلمين ، ولذلك جاء كتابه عن تاريخ اسبانيا ، واحدا من الكتب التي أثرت بشدة في الكتابات التاريخية التالية . ولد عام ١٥٣٦ في طلبيرة ، وتعلم في أسبانيا وإيطاليا وحصل علي الدكتوراه من جامعة باريس . عام ١٥٧٩ عين حكما في المجامع الدينية ، ثم أصبح مستشارا للبابويه ، عاد الى اسبانيا ١٥٨٢ م ، وأقام في طليطلة ، وعاصر طرد الموريسكيين من أسبانيا ، وعينه الملك فيليب الرابع مؤرخا ملكيا ، ومات عام ١٦٢٤ عن ثمانية وثمانين عاما أما النص المشار اليه في المتن فلقد ورد في كتاب مختارات من تاريخ اسبانيا قام بجمعها الدكتور مانويل بايستروس

manuel Ballesteros mariana, juan, Historia de España, pp. 114 - 115

Picatoste, Felipe : Historia de España, pp. 200 - 201

(٧٥)

Arranz Velarde , F. La España musulmana madrid 1941. pp. 180 - 181

وكذلك كتاب

Chjne, G. , Anwar : Historia de españa musulmana madrid 1980, pp. 96.

Chijne, Anwar : op . cit . pp. 96

(٧٦)

(٧٧) عبدالكريم التواني مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٧٨) محمد رزوق : الأندلسيون وهجراتهم الي المغرب خلال القرن ١٦ ، ١٧ ص ٥٥ - ٥٦ .

Arranz Velarde, F. : Lecturas historicas, Santander, enpaña 1935, pp. 221.

(٧٩)

(٨٠) نبذة العصر، ص ١٢٧ .

(٨١) أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس ، ص ٢٢٠

(٨٢) أسعد حومد : نفس المصدر ص ٢٢١ .

Caros Baroja, Julio : Los moriscos del rieno de Granada, madrid 1976, pp. 43 - 44 (٨٣)

(٨٤) انظر نص الرسالة كاملة في كتاب نفح الطيب للمقري ح ٦ ص ٣٢٨ الي ٣٤٩ وهي رسالة يصفها الأستاذ محمد عنان بأنها قطعة رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر، وهي دفاع يدل في روحه وقوته وروعته علي فداحة التبعة التي شعر بها آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ . وأما الأمم الاسلامية والأجيال القادمة كلها، وعلي أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر الي غمرة النسيان والعدم محكوما عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته . " نهاية الأندلس ص ٢٧٨

(٨٥) محمد عنان : نهاية الأندلس ص ٢٨٠ .

Caro, Baroja, Julio : op - cit, pp. 48.

(٨٦)

marmal, luisse de : Historia de la rebeliony Castigo de los moriscos de Granada,

(٨٧)

pp. 22 - 23

وانظر في ذلك أيضا كتاب نهاية الأندلس ص ٣١٣ ، وكتاب " المسلمون المنصرون ص - ٣٥ .

Garcia y Gorcia de castro : Virtudes de la reina catóbica , pp. 35

(٨٨)

Garcia y Garcia : op - cit , pp. 35.

(٨٩)

والوثيقة المشار اليها كتبت بالاسبانية القديمة ومحفوظة في السجل العام في سيما نكاش Simancas وهي دار هامة لحفظ الوثائق في قشتالة القديمة بالقرب من مدينة بلد الوليد Valladolid

(٩٠) ارجع الي النص كاملا في نبذة العصر ص ١٣٠ - ١٣١ . وكذلك ارجع الي الصورة التي نقلها المقري في كتابيه العظيمين نفح الطيب وأزهار الرياض .

Garcia y Garcia : Virtudes de la reina, p. 39

(٩١) انظر كتاب

muro , José Historia de España , pp. 412 - 413

(٩٢)

المصادر العربية :

- أسعد حومد : محنة العرب فى الأندلس : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٨٨ .
- عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة : دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة - القاهرة ١٩٨٣ م
- عبدالرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى - الطبعة الأولى - بغداد ١٩٧٦ م.
- عبدالكريم التوانى : مأساة انهيار الوجود العربى فى الأندلس : مكتبة الرشاد - الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م.
- عبدالله جمال الدين : المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون : الطبعة الأولى - دار الصحوة - القاهرة ١٩٩١ .
- عبدالواحد ذنون طه : دراسات أندلسية : الطبعة الأولى - بغداد - ١٩٨٦ م.
- كاردياك - لويس : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية ١٤٩٢ م - ١٦٤٠ م - ترجمة د. عبدالجليل التميمى - منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية ، زغوان ، تونس ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩ .
- مجهول : نبذة العصر فى إنقضاء دولة بنى نصر . تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية - الطبعة الأولى - دمشق ١٩٨٤ م.
- محمد رزوق : الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب - مكتبة أفريقيا الشرق - الدار البيضاء ١٩٨٩ م.
- محمد عبده حتملة : محنة مسلمى الأندلس - الطبعة الأولى - الأردن ١٩٧٧ م.
- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين - مكتبة الخانجي - الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٦ .
- محمد على قطب : محاكم التفتيش فى الأندلس - مكتبة القرآن - بولاق - القاهرة ١٩٨٥ م.
- المقرى : الشيخ محمد بن احمد المتوفى ١٠٤١ هـ .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق الشيخ يوسف البقاعى - الطبعة الأولى - بيروت ١٩٨٦ م.
- ازهار الرياض فى أخبار القاضي عياص . تحقيق مصطفى السقا وآخرون
- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٣٩ م.